المكتبة الثقافية

٨٥

أيام في الإسلام

أحمد الشرباصي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

١٥ مايو ١٩٦٣

المكتبة الثقافية

- اول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام اساتذة متخصصين وبقر لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى اوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

تعمير الصحارى

الدكتور عز الدين فراج

اول يونيه ١٩٦٣

الثمن ٣ قروش

مطابع دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية
٨٥

أيام في الإسلام

أحمد الشرباصي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

١٥ مايو ١٩٦٣

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله تبارك وتعالى ، ونصلى ونسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم محمد وآله وصحبه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، ونستفتح بالذى هو خير : « ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير » .

تقديم

هذا كتاب عن طائفة من أيام الإسلام ، وكم فى تاريخ الإسلام من أيام .

ولو رجعنا إلى دستور الإسلام الأول ، وكتاب العربية الأعلى ـ وهو القرآن الكريم ـ لوجدنا مادة «اليوم» تتكرر فيه أكثر من خمسمائة مرة ، ولوجدناه يحدثنا عن أيام وأيام . فهو يحدثنا عن اليوم الآخر ، يوم الدين ، يوم القيامة ، اليوم الذى لاريب فيه ، والذى لا بيع فيه ولا خلال ، والذى تبيضّ فيه وجوه ، وتسودُّ وجوه ! . .

ويحدثنا عن « يوم الحج الأكبر » حيث يقول فى سورة التوبة : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » . وقد أخبرنا المفسرون أن هناك حجين : الحج الأصغر وهو العمرة ،والحج الأكبر وهوالحج المفروض ، وقد روى أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر ، لأن الرسول

صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فيها وقال : أى يوم هذا ؟ . قالوا : يوم النحر . قال : هذا يوم الحج الأكبر .

وحدثنا القرآن عن الأيام المعدودات فقال فى سورة البقرة : « واذكروا الله فى أيام معدودات ، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى ، واتقوا الله ، واعلموا أنكم إليه تحشرون » . والأيام المعدودات هى أيام التشريق بمنى ، وهى أيام رمى الجمار الثلاثة عقب يوم النحر . وكان الرسول يقول عنها : « إنها أيام ذكر الله عز وجل ».ويقول: « أيام التشريق أيام طُعم وذكر » . ويقول : « إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر لله » .

وحدثنا القرآن عن الأيام المعلومات ، فقال فى سورة الحج : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » .

والأيام المعلومات هى الأيام العشرة فى صدر ذى الحجة ، وقيل هى يوم النحر مع أيام التشريق .

وحدثنا القرآن عن يوم حنين ، وهو يوم الكثرة التى لم تغن ، فقال فى سورة التوبة : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » .

وحدثنا عن يوم بدر ، يوم التقى الجمعان ، وعن يوم الهجرة ، ويوم إكمال الدين ، ويوم الجمعة ، ويوم الفطر : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » ، ويوم النحر : « فصل لربك وانحر » ، ويوم التقاء طالوت بجالوت : « ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت . وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

وحدثنا القرآن عن «أيام الله» حيث قال فى سورة إبراهيم: « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وذكرهم بأيام الله ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار

شكور » . وقال فى سورة الجاثية : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ، ليجزى قوما بما كانوا يكسبون ، من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون » .

و « أيام الله » هى نعمه التى أنعم بها على مستحقيها ، ونقمه التى صبها على مستحقيها ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

* * *

وحدثنا تاريخنا أن للعرب فى جاهليتهم أياما ووقائع ، أطال الحديث عنها السابقون ، مثل ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » وسواه ، ولكن شتان ما بين أيام غمرتها ظلمات الجاهلية ، وأيام باركتها يد الله العلى الأعلى . .

كما حدثنا أدب لغتنا فى شعره ونثره عن يوم النَّدى ، ويوم الطعان ، ويوم النعيم ، ويوم البؤس ، واليوم الأيْوِم وهو الشديد ، والأيام الغر الطوال ... إلخ .

فإذا كان للأيام كل هذا الشأن فى معجز البيان ومأثور الأدب ، فما أحق « أيام الإسلام » التى ازدهرت فى عهده الأول على مقربة من جلال النبوة وهدى الرسالة أن يكون لها

حديث وترجمان ، وإنه لمن التشريف للصفحات التالية أن يدور حديثها حول طائفة من هذه الأيام .

وإذا كانت الإشارة في هذه الصفحات قد قامت أحيانا مقام العبارة ، أو ناب الإجمال عن التفصيل ، فإن العلامات على الطريق تهدى السائرين إلى غايته .

وإذاضاق نطاق الحديث اليوم عن الاستقصاء ، فإن المأمول أن يكون من وراء اليوم غدٌ تدرك فيه النفس مالا تبلغه الآن .

وعلى الله قصد السبيل ؟ .

« القاهرة في يناير ١٩٦٣ »

أحمد الشرباصي

يومُ الندوة

إن الناظر فى سيرة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم يرى فيها كثيراً من المشاهد والصور التى تحفل بجلائل الحوادث ، وتفيض بالحركة والحياة والانفعالات المختلفة ، وكأن هذه المشاهد أشرطة سينمائية تأخذ البصر بملامحها ، وتأسر اللب بروعتها ، وتستولى على الذهن بدوافعها ونتائجها .

وفى لحظة من لحظات الذكرى والتخيل جعلتُ أتصور مشهداً من هذه المشاهد التى وقعت فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو مشهد اجتماع « دار الندوة » الذى عقده المشركون قبيل الهجرة لتدبير المؤامرة الخسيسة ضد سيد البشرية ونبي الإنسانية محمد صلوات الله وسلامه عليه ... وتلاقى التاريخ ، والتصور ، والخيال ، على رسم ذلك المشهد بالصور التالية ، وكأنها لوحات على شاشة تمر متتابعة فتصور ما كان ، أو قريباً مما كان .

نشهد المشركين فى مكة مقبلين على « دار الندوة » المجاورة للكعبة فى عجلة واهتمام ، والليل يلف مكةَ وشعابها بستار من الظلام

والرهبة ، ونسمع من بعضهم أنهم قادمون للتشاور فى أمر محمد الذى يريد أن يجعل الآلهة إلها واحدا ، ويريد أن نترك دينَ الآباء والأجداد ، وأن نهجر عبادة الأصنام التى نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى . ونرى الحقدَ والغيظ وشهوة الانتقام الأثيم بادية واضحة على وجوههم .

ثم تبدو دار الندوة من الداخل وقد اجتمع فيها رهط المشركين ، ونرى بينهم أمثالَ أبى سفيان ، وأبى جهل ، وأبى لهب ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، وزمعة ابن الأسود ، وخالد بن الوليد ، وعقبة بن أبى معيط ، وأمية ابن خلف ، وحكيم بن حزام ، والحكم بن أبى العاص ، وأبى البحترى بن هشام ، والأسود بن ربيعة ، وغيرهم ، ونشهد سيوفَ القوم إلى جنوبهم ، كأنهم متهيئون لتنفيذ جرم أثيم .

ونسمع أحد الموجودين يقول : أفما آن لكم أن تتخلصوا من محمد وصحبه بطريقة حازمة وعمل فاصل ؟ . لقد كنتم تخافون عمَّه أبا طالب ، فقد مات ، وكنتم تهابون زوجته خديجة بنت خويلد وقومها ، فقد ماتت . . فماذا أنتم صانعون ؟ .

وهنا يدخل على القوم شيخ نجدى غريب ، طاعن فى السن ، رهيب الطلعة ، خبيث الملامح ، عليه طيلسان واسع ، ويحييهم ،

فيتطلعون إليه مستكشفين أمره ، ويسأله الوليد بن المغيرة : من الشيخ ؟ وممن ؟. فيجيبه : إنى من أهل نجد ، ومن الممتلئين حقدا وغيظا على محمد الصابئ الذى فرّق كلمةَ العرب ، وقد سمعتُ باجتماعكم فجئت أحضره راجيا أن يكون لى فيه رأى .

فيسارع أبو جهل بتوجيه الخطاب إلى الوليد بن المغيرة قائلا : دعه يشاركنا يا شيخ بنى مخزوم ، فإنه ابن عمنا ، وهواه من هوانا فى محاربة محمد وصحبه .

ونلمح رضا الأكثرية عن هذا الرأى ، فيشير إليه الوليد بالدخول ، فيدخل ، ويأخذ مكانه قريبا من صدر المجلس ، ويظهر احتفاءُ القوم به ، واهتمامهم بأمره .

ويتكلم خالد محتدا فيقول : خبرونى ياقوم : ماذا ستصنعون فى أمر محمد ؟ فإنى أخشى أن يقوى ساعده بمن يتبعونه ، ثم يحاربكم بهم بعدأن يفسدهم عليكم . فيقول أبوالبحترى بن هشام : الرأى عندى أن نقيد محمدا بالأغلال ، ونحبسه خلف الأبواب حتى يموت .

وتسرى حركة تطلع بين بعض القوم وبعضهم الآخر ، ونلمح أن أسرعهم فى التطلع وأدقهم فيه هو الشيخ النجدى ، الذى يسارع بمعارضة هذا الرأى قائلا : عندى أن هذا ليس

بالرأي الرشيد ، وحقِّ اللات والعزى لو حبستموه لغضب له قومه وأتباعه ، وقاموا فانتزعوه من سجنه ، وحاربوكم به ، فابحثوا لكم عن رأى آخر .

وهنا نسمع بعض الأصوات تهمهم قائلة : نعم ، صدقَ الشيخ النجدى . . . صدق الشيخ النجدى ، فابحثوا لكم عن رأى آخر . فيقول الأسود بن ربيعة : أرى أن تنفى محمدا من بلادنا ، فإذا ابتعد عنا لم نبال أين ذهب ، ولا ماذا حدث له .

ويهم البعض بتأييد هذا الرأى ، بينما يتطلع بعض آخر إلى وجه الشيخ النجدى ليروا وقعَ الاقتراح فى نفسه ، ويسارع هو بالإعتراض قائلا : وليس هذا برأى رشيد . . . ألم تروا براعةَ محمد فى الحديث ، وقدرته على جذب الناس إليه ؟ . وحقِّ الآلهة لو تركتموه يمشى فى الأرض لفَتَنَ الناسَ وحرضهم عليكم .

وبينما نشهد أمارات التسليم بهذا الاعتراض على طائفة من الوجوه نرى شابا لعله خالد يقف ويقول متحمسا وهو يقبض على سيفه : إذن لم يبق لمحمد إلا هذا السيف يريحنا منه . . . ونلاحظ حسن الوقع لهذا التحمس فى نفوس الشباب ، ولكن أبا سفيان يقول موجِّها الحديثَ إلى خالد : حسبك حماسةً

يافتى مخزوم ، ولاتنس عادة العرب فى طلب الدم والأخذ بالثأر .

ويتطلع الوليد بن المغيرة إلى الشيخ النجدى قائلا : ما رأيك يا شيخ نجد ؟ . بينما نرى الشيخ النجدى فى تفكير عميق ، وكأن عبارة خالد وتعليق أبى سفيان قد فتحا له بابَ الرأى الرشيد فى تقديره ، ويهم بالتكلم ، فيصمت الجميع معلقين أبصارهم به ، فيقول : إن لى فى محمد هذا رأيا سيرضيكم جميعا ، الرأى عندى أن تختاروا من كل قبيلة شابا قويا صاحبَ حسب ونسب فى قومه ، ويجتمع هؤلاء الشبان على ضربه دفعة واحدة ، و . . .

فيسارع أبو جهل (واسمه أبو الحكم عمرو بن هشام) متمما كلامه ، وكأنه كان يفكر فى نفس الفكرة التى يفكر فيها النجدى ، فيقول : « وبذلك يتفرق دم محمد بين القبائل ، فلا تستطيع قبيلةُ محمد أن تقاتل العرب كلهم ، فتقبل منكم الدية ، وتستريحون من أمره وشره » .

فيضحك الشيخ النجدى ضحكة خبيثة قائلا : لقد صورت ما بقلبى يا أبا الحكم كأنك تطلع عليه . فيقابله أبو جهل بابتسامة مماثلة فى الخبث قائلا : وحقّ الآلهة ، ما كنت أظن أنه سيخطر هذا الرأى على قلب أحد غيرى ، اللهم إلا أن يكون الشيطان ! . . وتظهر موجة من الارتباك والاستياء على وجه الشيخ النجدى

من عبارة أبى جهل ، إلا أنه يسارع بالتماسك وتجاهل ماقال ! ... وتبدو الموافقة والإعجاب بالرأى السابق بين الموجودين ، وهنا ينهض خالد قائلا : ومادام هذا هو الرأى ، فلا داعى للتأخير فى التنفيذ ، ولتكن الليلة هى ليلة الفصل فى أمر محمد الصابئ ، وهأنذا عن بنى مخزوم ، وهذا سيفى ! ! . . . ويقبض عليه ليشهره .

وهنا يقول أبو جهل : انتظر يا خالد حتى نعرف زملاءك .. ويتلفت أبو جهل ويقول : من الذى سينوب عن بنى عبد شمس ؟. ونرى شخصا يقف ويقول : عقبة بن أبى معيط . فيقول أبو جهل : ومن سيمثل بنى عبد الدار ؟ . فيقف واقف ويقول : النضر بن الحارث . فينادى أبو جهل : ومن الذى سينوب عن جمح ؟ . فيرد راد : أمية بن خلف ، فيقول أبو جهل : ومن سينوب عن بنى هاشم ؟ . فيجيب مجيب : عبد العزى ابن عبد المطلب (أبو لهب) . فيقول أبو جهل : ومن سيكون فتى بنى أسد ؟ . فنسمع من يقول : حكيم بن حزام . . . إلخ . أو هكذا فعلوا فالخيال هنا هو الذى يتصور .

ونترك القوم يتممون اختيارهم ويكملون مؤامرتهم ،

ويأخذون أهبتهم للتوجه إلى بيت محمد ، وننتقل إلى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكأننا نشهد نورا قويا ساطعا هابطا من السماء ، حتى يدخل البيت النبوى الكريم فيضيئه ويغمره ، ومعه أصوات غريبة ، كصلصلة أجراس ، أو دوى رعد ، أو حفيف غريب ، أوما أشبه ذلك ، ويتردد صوت ملائكى رهيب ينادى : يا محمد ، إن الله معك وهو ناصرك ، لا تبت الليلة فى فراشك ، فإن أعداء الله وأعداءك فى الطريق إليك ليقتلوك ، ولكن الله لك خير الحافظين : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثْبِتُوك (ليقيدوك بالوثاق) أو يقتلوك أو يُخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين ».

ويرتفع الضوء ويعود الظلام ، ثم نلمح الأشباح الكافرة مقبلة ، وأيديها على سيوفها ، ويوزعون أنفسهم فى مناجاة خافتة حول البيت ، ويسخرون بمحمد الذى لا يرون له الآن — من جهلهم — حولا ولا طولا ، ويتساءلون : أين إلهه المزعوم لينقذه من أيدينا ؟ وأين الضعفاء الذين خدعهم فاتبعوه ليدافعوا عنه الآن ؟ ! . .

ويتطلع بعضهم من منافذ البيت أو الباب ويقول : ها هو ذا محمد فى الدار . . . وكأنه يتهيأ للخروج لصلاة الفجر ،

وهم يرتقبون هذه اللحظة للانقضاض عليه وضربه ، ويتواصون باليقظة والانتباه ، حتى لا يفلت من أيديهم ، ويستندون إلى جدار الدار جلوسا ، وبعد قليل يدركهم النعاس ، وينفتح الباب ، ويندفع منه ضوء ساطع يعلو المكان فيحيل الأشباح النائمة سديما مهتزا متميعا لا يكاد يحدده البصر ، ونسمع الآية الكريمة : « وجعلنا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

ويبتعد الضوء ويعود الظلام ، وتبدو خلاله الأشباح النائمة التي يبدو منها شخير منكر الصوت ، ثم نرى تباشير الصباح تلوح ، فيمر بالنائمين أحد المارة من المشركين فيراهم نياما ، ويرى بابَ البيت مفتوحا ، فيصرخ عليهم فيهبون مذعورين وبعضهم يقول . أين محمد ؟ . وآخرون يقولون : أين هو ؟ . وآخر يقول : لا نجوت إن نجا .

فيهزأ المشرك بهم قائلا : اسألوا عن محمد ما كنتم فيه من نوم وشخير أيها الأبطال . . . ويدخل بعضهم إلى البيت ، وبعد قليل نسمع أصواتا تقول : ليس فى البيت إلا على بن أبى طالب . وهنا يموجون ويضطربون . . . أين فرَّ ؟ وأين ذهب ؟ . ونرى خالدا يثور قائلا : يجب أن نقبض عليه ، وأن نقتفى

أثره ولو كان تحت التراب ، ولن يفلت من أيدينا بحال من الأحوال .

ونترك هؤلاء يموجون فى حيرتهم وضلالهم وتفرقهم ذات اليمين وذات الشمال للبحث والتفتيش ، وننتقل إلى المدينة فنرى أهلها مجتمعين فى فرح وحبور ، ليستقبلوا البدر الذى يطلع عليهم من « ثنيات الوداع » ، محمد عليه الصلاة والسلام . .

يوم الهجرة

تتلألأ فى تاريخ الأمم والجماعات أعمال ظاهرة باهرة ، ماجدة خالدة ، لا يقتصر أمرها على بعد النظر ، أو عبقرية البشر ، أو الوسائل الأرضية الأخَر ؛ بل تؤيدها قوة السماء ، وتلحظها عناية الله ، وتحفها ملائكة الرعاية والرحمة .

وفى مقدمة هذه الأعمال حادث الهجرة ، إذ فيه نرى الحقَّ الأعزل يخلص كريماً من بين مخالب الباطل الباطش ، ونرى النبوةَ الراشدة الحليمة تعلو على السفاهة الكافرة الحمقاء ، ونرى القلة المستضعفة بيقينها فى دنيا الشك والريبة ، تفوز على الكثرة المستبدة الباغية ؛ وليس ذلك كله عملَ الإنسان ، ولكنه فى بدئه ومختتمه تدبير الرحمن : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن ، إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » .

ولقد تتابعت نظراتنا ووقفاتنا فى ذكرى الهجرة ، وستظل متتابعة كذلك ، وليس لذى حظ وسيع من الوهم أو الخطأ أن يقول : إن هذا الحديث الموصول الدائم عن الهجرة لون من ألوان الرُّجْعى إلى الماضى البعيد ، او سمة من سمات الاستغراق فى التاريخ السحيق ، لأن الهجرة لم تقتصر بأخبارها وآثارها على عهد دون عهد ، بل هى بوحيها وهديها ، لا تزال جاريةً سارية خلال صفحات الأجيال ، وفى طوايا نفوس الرجال .

وما كان محمد المهاجر — صلوات الله وسلامه عليه — قطعةً من تاريخ يُقْبل ثم يزول ، أويزدهر ثم يحول ، ولكنه قبس من قدر الله ، تبدى فأضاء جوانب الحياة ، ولا تزال عين العلى القدير تحرس هذا الهدى وترعاه ، ولا يزال محمد النبي حيًّا بسنته وطريقته فى قلوب المؤمنين ، ورءوس العاقلين ، على ممر الأيام والسنين : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ».

وهل جاء الإسلام الحنيف — وهو الدين العاصم الخاتم — ليكون موجِّها للناس فى عصر دون عصر ؟ أو ليكون قائداً فى مِصْرٍ دون مصر ؟ ... أليس هو دينَ الله أبد الدهر ؟!...

« إن الدين عند الله الإسلام » ، « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » ، « فما يكذبك بعد بالدين ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين » ؟ !

ولسنا حين نستلهم أحداث الإسلام الكبرى — كالهجرة وغيرها — عبّادَ أمكنة ، أو أسارى أزمنة ، ولكننا طلاب قدوة وعشاق أسوة ، وليست لفتة الجيد منا إلى ماضينا المحشود بالمآثر والمفاخر رجعةً إلى الوراء ، أو تعويقاً عن التقدم ، ولكنها لفتة المتبصر المستذكر ، المواصل سيره على سواء الطريق ، ونحن لا نمجّد دعاة ، ولكننا نؤمن بدعوة ، ولا نفنى فى إنسان أو زمان أو مكان ، ولكننا نستمسك بأسباب الرضا والرضوان ، ممن خلق الإنسانَ والزمان والمكان : « ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » ...

ونحن حين نستعرض ذكريات الإسلام المجيدة نستلهم حوافز تدفعنا إلى مواطن العمل والجد فى غير إسراف أو اعتساف .

ونحن لا نريد إبطاءَ المبطئين ، ولا عجلة المتعجلين ؛ ولا نرتضى جمود الجامدين ، أو تحلل الإباحيين ، ولا نقبل تعقيد المعقدين ، أو تثبيط المعوقين ، ولا تغرنا مخادعة المتاجرين ...

ولكنا نريد وئام المتعارفين ، وقوة البانين ، ومضاء المؤمنين ، وثبات الموقنين ، والعزةَ على سائر الجبارين ، والعبودية لله رب العالمين ..

نريد أن نجمع بين العبادة والقيادة ، والوحدة والسيادة ، والسلام والسعادة ... نريد أن لا نعرف الإسراف أو الاعتساف ، بل نريد الاعتدال والإنصاف : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

نريد الأجسام الصحيحة الفارعة ، والعزائم الفتية الصادعة ، والضمائر الحية الرادعة ، والعقول الواسعة الجامعة ، والحياة الشريفة النافعة ، والنفوس الزكية الراتعة ، التى لا ترتع فى حمأ الإثم والعدوان ، بل ترتع فى رياض الرحمن ورحاب الديان ...

وفى استذكارنا للهجرة حق الاستذكار استعانة على السير فى طريق هذه الأهداف .

* * *

لقد كانت هجرة محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ ثورةً أى ثورة ... كانت ثورة على الفساد فى العقائد ، والضلال فى الأفكار ، والطغيان فى الحكم ، والاستبداد في الاقتصاد ،

والإجحاف فيما يستوجب الإنصاف ، فإذا بخطوات محمد من مكة إلى المدينة تمس مغاليق الخير المطوى فى هذا الوجود ، فتفجّرها نِعَماً تهطل على العباد من أكرم معبود ، وإذا بهذه الخطوات نفسها تطمس معالم النكر والفجور ، فلا وثنية ولا إباحية ، ولا كسروية ولا قيصرية ، ولا عنجهية ولا جاهلية ، ولا عصبية ولا حَمِيَّة . . . ولكن إخوة إيمانية ، وسنة محمدية ، وعدالة عمرية ، ومودة إنسانية : « قل إن ربى يقذف بالحق ، علام الغيوب ، قل جاء الحق ، وما يبدئ الباطل وما يعيد » ؟ ! . . .

وكانت هجرة محمد خطوة إلهية مؤيدة فى سبيل الحرية وإباء الهوان ، ولا عجب فمحمد هو الذى علم الإنسانية كيف تكفر بكل قيد إلا قيد خضوعها للواحد القهار ، عن طريق إيمانها بسواطع الآيات وقواطع الآثار ، ولا غرو فالحرية صنو الحياة وهى كما قيل : « غذاء الطبائع ، ومادة الشرائع ، وأم الوسائل والذرائع ، بنت العلم إذا عمّ ، والخلق إذا تمّ ، وربيبة الصبر الجميل والعمل الجم . الجهل يئدها ، والصغائر تفسدها ، والفرقة تبعدها ، تكبيرة الوجود فى أُذن المولود ، وتحية الدنيا له إذا وصل ، وصيحة الحياة به إذا نصل (أى ولد) ، هاتف من

السماء يقول له : يا ابن آدم ، حسبك من الأسماء عبد الله وسيد العالم » ! ! . .

أو لم تر كيف خرج محمد من مكة دار السكن وعقر الوطن، ومستقر الآباء والأجداد ، ومستراد المطامح والأمجاد ، لأنه أبى إلا أن يكون حرا فى حسه ، حراً فى نفسه ، حراً من مهده إلى رمسه ، حتى يحقق لكتيبة الإيمان أولَ صفاتها وهى الحرية وإباء الهوان ؟ ! . . .

وكانت هجرة محمد مفتاحاً لاستكمال الاتحاد بين المسلمين . وهل هناك مظهر للاتحاد أكرم أو أعظم أو أقوم من المؤاخاة بين المهاجر والأنصارى ، حتى يرث كل منهما يومئذ أخاه كما يرث الشقيق الشقيق ؟ . . .

وكانت هجرة محمد تنظيما لصفوف المجاهدين المؤمنين . وهل هناك أدل على النظام من هذا الإحكام فى صفوف الرعيل الأول من جنود محمد ؟ ... فلا خيانة ولا خداع ، ولا تمرد ولا امتناع ، بل تكافل ومؤازرة ، وطاعة تكفر بالمكابرة ، وحرص على الاستماع والاستجابة دونه الحرص على الحياة أو الأعزاء من الأحياء . . .

وكانت الهجرة باباً من أبواب العمل المثمر المفيد . وهل

أدل على ذلك العمل من أن صحابة محمد بنوا دولة الإيمان الوطيدة الأركان الشامخة البنيان، الباهرة لقلب كل إنسان، فى هذه المدة القصيرة من الزمان: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب».

* * *

لقد هاجر حبيبنا وسيدنا رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة، فكانت هذه الهجرة فتحا جديداً فى تاريخ الإنسانية، وتحولا واضحاً فى وضع الجماعة البشرية، ونصراً ملحوظاً للدعوة الإسلامية، وكأنما كانت الفاصل بين عهدين طويلين مديدين: العهد الأول منهما هو عهد الجاهلية الجهلاء، والضلالة العمياء، والبغى الموفى على النهاية، والشرك المسرف فى الغواية، والشيطان المسيطر على بنى الإنسان، إلا من رحم الله؛ والعهد الثانى هو عهد الإسلام والإيمان، واليقين والإحسان، والنور الإلهى الذى بثه الله بين عباده، فأشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة.

ولذلك يقول الرافعى رحمه الله: «حتى إذا كانت الهجرة من بعد، فانتقل الرسول إلى المدينة، بدأت الدنيا تتقلقل، كأنما مرَّ بقدمه على مركزها فحركها، وكانت خطواته

فى هجرته تخط فى الأرض ، ومعانيها تخط فى التاريخ ، وكانت المسافة بين مكة والمدينة ، ومعناها بين المشرق والمغرب » .

وقد علمتنا الهجرة بجلالها ومعانيها كثيراً من الدروس والعظات والعبر . . علمتنا أول ما علمتنا أن الحق لا بد له من وطن ودار وأنصار ، وأن الباطل المستحكم لا يسلم قياده للحق المقبل فى يسر وسهولة ، بل إن ذلك الباطل يقف عنيداً شديداً فى وجه الحق ، يأخذ عليه الطريق ، ويسد فى وجهه المنافذ ، ويتربص به الدوائر ، ويتلمس عنده الثغرات ليبطش به أو يقضى عليه ،وحينئذ يحتاج الحق إلى الالتجاء بدعوته ومبادئه إلى تربة خصبة ، ودار آمنة ، وأنصار مؤمنين ! . .

ولم تكن هجرة محمد وأصحابه يوم هاجروا هجرةَ خوف على أشخاص أو حياة أفراد ، ولكن كانت هجرةً فى سبيل الله والمبدأ ، وهجرةً من أجل الحق الذى يحرص أهلوه على تبليغه إلى الناس ، وهداية العالم عن طريقه ! . .

* * *

وعلمتنا الهجرة أن صاحب المبدأ القويم والاعتقاد السليم لا يصبر على الذل ، ولا يقيم على الضيم .

لقد بغى الشرك الأحمق على الإسلام الناشئ فى مكة ، ولقى

المسلمون على أيدى الطغاة الفاسقين ألوانا من العنت والتعذيب ، وما كان الله ليدع العصبة المستضعفة من عباده تذوق هذه الآلام صنوفا وألوانا ، دون أن يهيء لهم السبيل للاعتزاز ، ويقيض لهم الفرصة للخلاص من هذا الهوان ، حتى ينتهوا إلى « المدينة » دار النصرة ومركز القيادة ، فينظموا من صفوفهم ، وينتصفوا لأنفسهم ممن بغوا عليهم بغير الحق ، فيكون ذلك الانتصاف تأديبا للإجرام المتوقح ، وتعزيزاً للحق المضطهد ، وتكريما للمؤمنين المهاجرين : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » . .

* * *

وعلمتنا الهجرة أن الشباب إذا نشئوا منذ الصغر على استسهال الخطر كانوا أجلاء الأثر ، وطال عنهم جميل الخبر ... فهذا على بن أبى طالب رضى الله عنه ربيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتلميذه من صغره ، ينشأ فى مدرسة النبوة العظيمة الحكيمة فتى من فتيان الإسلام الأماجد ، لا يخاف إلا الله ، ولا يهاب أحدا سواه ، وهو يقدم على الأخطار غير هياب ولا وجل ، ولقد اجتمع طواغيت الشرك فى « دار الندوة » يتشاورون فى أمر محمد ودينه ، ثم جمعهم الشيطان على فكرة

التخلص منه بالاجتماع على قتله ، وأتى جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر ، وقال له ليلة المؤامرة : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه .

ولما جاء الليل تلاقى المجرمون تحت الظلام حول بيت محمد عليه الصلاة والسلام ، وبيد كل منهم سلاحه ، يرصدونه حتى ينام ، ليثبوا عليه وثبة رجل واحد ، حتى يتفرق دمه فى القبائل .

وفى هذه البرهة الخطيرة المشهودة فى تاريخ البشرية ، المحفوفة بالأخطار والمهالك ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لتلميذه وربيبه على : « نم على فراشى ، وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر ، فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شئ تكرهه منهم » ! . .

ويطيع الفتى الوفى ، والتلميذ المخلص ، والشاب الناشئ فى طاعة الله ، المتأدب بأدب رسول الله ، الطاعم من فيض دين الله ، فينفذ الأمر بلا خوف ولا هيبة ولا تردد ، وهكذا الأبناء ينشأون على طراز الآباء :

وينشأ ناشىء الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه !

* * *

وعلمتنا الهجرة أنها يجب أن تكون لله وفى سبيل الله ، لا لغرض ، ولا لمرض ، ولا لطلب مغنم ، أو تحقيق مطمح ، أو نيل رغبة ، فإن الله عز وجل يقول فى كتابه العزيز : ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما[1] كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيما» .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وإذا قدّم المؤمن عملا إلى الله تعالى حرص على أن يبذل فيه من ماله ومن جهده ما يجعله فى مقام الخلوص لله ، وما يبعده عن مظنة الاستعانة بغير الله .

ولقد خرج رسول الله يوم الهجرة وهو يريد وجه الله وحده ، وهاجر وهو حريص على دينه ودعوته ، وليس بحريص على حياته أو نفسه ، ولقد أراد أن يبذل من ذات يده

(١) المراغم : المكان يهاجر فيه الإنسان ويتحول إليه .

ما يستطيع ، كى تكون هجرته خالصة منه لله ، حتى رُوِى أنه رفض أن يقبل الناقة التى اشتراها له أبو بكر ليركبها أثناء الهجرة إلا إذا دفع ثمنها من ماله . .

يقول السهيلى فى كتابه « الروض الأُنُف » : « وفى حديث ابن إسحق أن أبا بكر كان قد أعد راحلتين ، فقدَّم لرسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة ، وهى أفضلهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لا أركب بعيراً ليس لى ، فقال أبو بكر : هو لك يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بالثمن ؛ فقال أبو بكر : بالثمن يارسول الله . فركبها . فسئل بعض أهل العلم : لم لم يقبلها إلا بالثمن ، وقد أنفق أبو بكر عليه من ماله ما هو أكثر من هذا فقبل ، وقد قال عليه الصلاة والسلام · ليس من أحد أمنَّ علىَّ فى أهل ومال من أبى بكر ، وقد دفع إليه حين بنى بعائشة ثنتى عشرة أوقية ونشا فلم يأب من ذلك ؟ !

فقال المسئول : إنما ذلك لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله ، رغبة منه عليه الصلاة والسلام فى استكمال فضل الهجرة وأن تكون الهجرة والجهاد على أتم أحوالهما . وهو قول

حسن ، حدثنى بهذا بعضُ أصحابنا عن الفقيه الزاهد أبى الحسن ابن اللوان رحمه الله » .

* * *

وعلمتنا الهجرة أن الله قد يعين عباده خير الإعانة بالسبب الضعيف فى نظرهم ، القوى بفضل الله وقدرته ، وأن الله — كما تعبر العامة — « يضع سره فى أضعف خلقه » . فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يختفى مع صاحبه فى الغار الأيام ذوات العدد ، فلا تحرسه أمام الغار مدافع ولا طائرات ، ولا جنود ولا معسكرات ، بل يهيىء الله له كما تقول السيرة من العنكبوت حارسا : « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » ، ويهيىء له من الحمام حارسا ، وإن الحمام لطير ضعيف أليف ، ليس بذى ناب ولا مخلب ! ! .

وروى شهاب الدين النويرى فى كتاب « نهاية الأرب » قال:

« وقال محمد بن سعد بسنده إلى زيد بن أرقم وأنس بن مالك والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهم : إن النبى صلى الله عليه وسلم ليلةَ الغار أمر الله شجرة فنبتت فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم فسترته ، وأمر العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته ، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار ، وأقبل فتيان قريش من

كل بطن بأسيافهم وعصيهم وهراواتهم ، حتى إذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم قدرَ أربعين ذراعا ، نظر أولهم فرأى الحمامتين فرجع ، فقال له أصحابه : مالك لم تنظر فى الغار ؟ . قال : رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار ، فعرفت أن ليس فيه أحد . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ، فعرف أن الله عز وجل درأ (دافع) عنه بهما ، وقال بعض من حضر فى طلبه : إن عليه من العنكبوت ما هو قبل ميلاد محمد . وقال أبو بكر رضى الله عنه : فنظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رءوسنا فقلت : يارسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا . فقال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ .

ولا عجب فالله عز وجل يقول : « ولله جنود السماوات والأرض » ، ويقول : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ، وقد أهلك الله أقواما بالطير الأبابيل ، وأقواما بسيل العرم ، وأقواما بالريح ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

* * *

وقد علمتنا الهجرة أن المرأة المسلمة تستطيع أن تقوم بواجبها فى المناسبات الملائمة والظروف المواتية ، فهذه عائشة الصديقة

بنت الصديق رضى الله عنهما ، كانت حين الهجرة فتاة ناشئة ، ومع ذلك أسهمت بشىء فى الهجرة ، كما أسهمت معها أختها « أسماء » ، تقول عائشة عن النبي وأبيها : « وجهزناهما أحب الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء قطعة من نطاقها ، فأوكأت (ربطت) به الجراب ، وقطعة أخرى صيرتها عصاما لفم القربة ، فلذلك سُميت أسماء ذات النطاقين » . .

وكانت أسماء تحمل الزاد من مكة إلى الغار ، غير خائفة من العيون والأرصاد ، ولقد جاء أبو جهل عقب خروج النبي مع أبيها مهاجرين ، فسألها عنهما فقالت إنها لاتدرى ، فلطمها لطمة باغية شديدة احتملتها أسماء فى سبيل الله تعالى . . .

وتصرفت أسماء تصرفا آخر يدل على الذكاء والبراعة والإخلاص . قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل ماله كله معه — خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف — فانطلق بها معه ، فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، فقلت : كلا يا أبت ، إنه ترك لنا خيرا كثيرا .. ثم أخذتُ أحجارا فوضعتها فى كوة البيت ، حيث كان أبى يضع فيها ماله ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده فقلت : ضع

يا أبت يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه وقال : لا بأس ، إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ؛ وفى هذا بلاغ لكم ... فلا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنى أردت أن أسكِّن الشيخ بذلك ! ! ...

* * *

وعلمتنا الهجرة أن ترك الإنسان لوطنه فى سبيل عقيدة أو دعوة ليس معناه التنكر لهذا الوطن ، أو الإعراض عنه . أو النسيان له ، فها هو ذا رسول الله عليه صلوات الله وسلامه يخرج من مكة مُكْرَهاً فى سبيل الله ، وما يكاد يبرز عن أبنيتها حتى يلتفت إليها ويخاطبها خطابَ المحب لها الحريص عليها فيقول : « والله إنكِ لأحب أرض الله إلى ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، وأكرمها على الله تعالى ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت » ! .

وها هم أولاء أصحابه المهاجرون يحنون الحنين الطاغى إلى وطنهم الأول « مكة » ، حتى يقول الرسول : « اللهم حبِّب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشد » ! ..

ويظل الرسول مشوقاً إلى مكة وهو فى المدينة ، ويحوِّل الله قبلته فى الصلاة من الكعبة إلى بيت المقدس ، فيتمنى الرسول

أن يحوله مرة أخرى إلى الكعبة ، ويقلب وجهه فى السماء راجيا من الله ذلك ، وما يكاد الوحى ينزل بتحويل القبلة إلى مكة حتى يستدير الرسول فى صلاته من جهة بيت المقدس إلى جهة الكعبة ، وذلك فى المسجد ذى القبلتين ، فنتعلم من ذلك درسا فى حب الوطن والحرص عليه ...

* * *

إن أعمار الأمم والشعوب كأعمار الأشخاص والأفراد ، منها أيام تمر هادئة باهتة ، ثم يطويها سجل النسيان بعد قليل ، لأنها لم تأت بجديد ، ولم تشتمل على جليل ، ولم تنقل أصحابها من حال إلى حال ...

ومنها أيام تأتى بغير توقع ، أو على انتظار ، فتحرك الساكن ، وتنفض الهامد ، وتبعث الراقد ، وتمر ساعاتها كما مرت ساعات الأيام الأخرى ، ولكنها تظل حاضرة مشهودة بالعقول والأرواح ، وإن لم تشهدها الأجساد والأشباح ، وتظل ذكراها باقية ، عميقة الجذور ، سامقة الفروع فى الخواطر والقلوب ، وما كان ذلك إلا لأنها أقبلت حين أقبلت تحمل فى ركابها ما يستلفت الأبصار والبصائر ، وما يثير العواطف والمشاعر ،

وما يهز أعواد المحافل والمنابر ، وما يستثير خفايا البواطن والسرائر .

والأيام الخافتة الباهتة فى حياة الأفراد والشعوب كثيرة العدد ، طويلة المدد ، لأن الأعمار العادية تظل فى أغلب أحوالها رتيبة ، متشابهة المعالم ، متشاكلة الجوانب ، حتى لقد تجلب على أهليها السأمَ والكلال ، وأما الأيام العظيمة الكريمة ، الخالدة الماجدة ، فى تاريخ البشرية وأبنائها ، فهى قليلة محدودة ، ومتمايزة معدودة ، لأن الروعة ، والعبقرية ، والتفرد ، والامتياز ، أشياء ليست حمًى مباحاً لكل طالب ، وليست سلعاً رخيصة يقتدر على ثمنها كلُّ راغب ، وإنما هى أشبه بالفلتات ، تأتى بضع مرات فى الجيل أو الأجيال ، فإذا هى تبدّل الأحوال ، وتأتى بجلائل الأعمال ، والله يختص بفضله من يشاء ، وكل شىء عنده بمقدار .

وعلى الرغم من كثرة الأيام الباهتة فى حياة الشعوب ، فإن كثرتها لا تغنيها فى السباق أو عند التنافس فتيلا ، لأن الأيام اللامعة الماجدة مع قلتها تطغى بضوئها وبهائها على الكثرة الخافتة ، فإذا هى هباء :

« وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

ولا شك أن « يوم الهجرة المحمدية » على صاحبها أزكى الصلاة وأعطر السلام ، كان تاجا لأيام البشرية المجيدة ، إذ لم يكن مثلا فريدا للإقدام من رسول الإسلام فحسب ، ولم يكن نقطة تحول فى تاريخ الدعوة الإسلامية فحسب ، ولكنه كان فوق هذا ، أو قبل هذا ، ابتداءً جديداً لتاريخ البشرية التى طالت بالأمس حيرتها ، وتفرقت بأبنائها السبل ، فمنهم من ضل ، ومنهم من جهل ، ومنهم من فسق ، ومنهم من حار . فتفضل قيوم السموات والأرض ، ورحمن الدنيا والآخرة ، على هذه البشرية الحائرة ، بمن ينقذها من ظلمات الضلالة والشقاء ، ويخرجها إلى باحات الهداية والهناء ، فجاءت الرسالة محمدا على قدَرٍ من ربه ، وجاءت الهجرة لهذه الرسالةُ بابا واسعا من أبواب الأمل والرجاء ، وفتحا جديدا من فتوح التمكين والاستعلاء .

ولولا الهجرة لظلت الدعوة الكريمة الحبيبة حبيسةً فى شعاب مكة ، يتربص بها المجرمون الدوائر ، يصاولونها تارة وتصابرهم تارات ، ويستعينون عليها بالجاه العريض ، والمال المكنوز ، والهوى الجموح ، والعصبية الكاذبة ، وتتلمس هى منافذ التأثير

والإقناع فى نفوسهم الضالة المضلة ، التى تسمع كلمة وتعرض عن كلمات ، وليس فى الدنيا أشد صمما ممن لا يريد أن يسمع : « إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون » ، « وما أنت بمسمع من فى القبور » .

ولكن الهجرة أقبلت بعد طول المصابرة من جهة الدعاة ، وفحش المكابرة من جهة المسرفين على أنفسهم ، حتى بلغ بهم جموح الفسوق أن يأتمروا بالصادق الأمين ، يريدون ليقضوا عليه بزعمهم ، حاسبين أن انتهاء حياته انتهاء لدعوته : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

فإذا الله العلى الأعلى يرسم لرسوله فى هجرته الطريق ، ويجنبه عثرات الكيد ودسائس الحقد ، ويخرجه من بيته بالحق ، ليس معه إلا رفيق واحد هو أبو بكر الصديق ، ولكن هذا الرفيق صار بعد سنوات عشرات من الألوف عادوا ففتحوا ديار الباغين ، وضربوا خير القدوة فى الصفح عن الخاطئين ، ونشروا ضوء الله فى العالمين ، وتمت كلمة ربك حقاً وصدقاً ، إن رحمة الله قريب من المحسنين .

نعم كان يوم الهجرة يوم الإباء للضيم والترفع على الظلم ، وكان يوم الحفاظ على الحق المبين ، ينأى به صاحبه عن مواطن التحيف والهضم ليعود به بعد حين قوياً فتياً ، عزيز الجانب ، مشهود المواكب .

وكان يوم التضحية بحب المسكن ، وجوار الأهل ، وشهوة التملك ، وعرض الحياة ، ليتم ما هو أسمى من ذلك وأعلى . . . لتنتصر كلمة الله .

وكان يومَ الاعتزاز بالإيمان مهما قلَّ أنصاره ، وكثرت حوله أخطاره ، لأن الحق لن ينقلب باطلا مهما قل متبعوه ، ولأن الباطل لن ينقلب حقاً مهما كثر مشايعوه : « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » ، « فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنَّى تصرفون » ؟

وإن في يوم الهجرة بحوادثه وأحداثه ، ومقدماته وثمراته كما في مواقف المسلمين الأولين الكثيرة ، لصوراً تبهر الناظر ، وعبرا تثير الفنان والشاعر ، ودورساً يجب أن تعرض على أبناء الإسلام، في كل مكان وزمان ، لتثير فيهم معاني العزة ، والشهامة ، والكرامة ، والإخلاص لله والوطن والجماعة .

* * *

والهجرة أنواع ، فهناك أولا « الهجرة الطبيعية » التي طبع الخالق الأعظم كثيرا من الكائنات عليها دون تصرف

فيها ، أو قدرة على تغييرها ، فالإنسان فى هجرة دائمة منذ كان فى الرحم ؛ فهو هناك فى أول الأمر نطفة ، ثم يهجر حاله فيكون مضغة ، ثم يكون علقة ، ثم يكون لحما وعظما ، ثم يستوى خلقا آخر ، « فتبارك الله أحسن الخالقين » ؛ ثم يخرج الإنسان إلى عالم الوجود ، فيظل فى هجرته الطبيعية الدائمة التى لا يستطيع لها تغييرا ولا تحويلا ، فهو طفل ناشئ ، ثم غلام يافع ، ثم شاب قوى ، ثم رجل فتى ، ثم كهل مكتمل ، ثم شيخ ضعيف ، ثم هرم متهدم ، ثم الخاتمة التى لا بد منها .

والطيور والأسماك طيلة حياتها فى رحلات مستمرة ، تنتقل من مكان إلى مكان ، ومن جهة إلى جهات .

والشمس الكبيرة الضخمة تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدَّره ربه منازل ، فكل من الشمس والقمر له أفلاكه ومنازله ومداراته التى تهاجر من أحدها إلى الآخر .

والأجواء نفسها ، والفصول الطبيعية ذاتها تتمثل فيها الهجرة أيضا ، فالصيف يذهب ويهاجر بحره وقيظه ، ثم يقبل الخريف برطوبته وعواصفه ، ثم يعود فيرحل ويهاجر ، ويأتى الشتاء بقره وبرده ، ثم يهاجر ويقبل الربيع بنسيمه ولطائفه ،

وهكذا دواليك . . . فكل هذه المخلوقات تتغير وتتبدل ، والهجرة ليست إلا تغيرا وانتقالا من حال إلى حال ! . . .

وهناك الهجرة البشرية الحسية المألوفة ، وهى ترك الأوطان ومفارقة الأهل والإخوان ، فى سبيل مبدأ من المبادئ ، أو رسالة من الرسالات ، أو غرض من أغراض الحياة ، وهذه إما أن تكون فردية يقوم بها شخص بمفرده ، وإما أن تكون جماعية تقوم بها طائفة من الناس ؛ والتاريخ ملىء بأنباء الرسل والأنبياء ، والصديقين والأولياء ، والفلاسفة والحكماء ، الذين ضاقت بهم ديارهم ، ونبت بهم أوطانهم ، فرحلوا وهاجروا ، ولاقوا فى سبيل ذلك ما لاقوا ، وخير هجرة تُذكر فى هذا المقام ، وسنام هذه الهجرات كلها هى هجرة أستاذ الدنيا وسيد الوجود ومعلم البشرية : محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وهناك الهجرة المعنوية الروحية الخلقية ، التى يفر فيها صاحبها من الشر إلى الخير ، ومن الباطل إلى الحق ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن الكفران إلى الإيمان ، ومن الرذائل إلى الفضائل ، ومن الظلمة والدياجى إلى النور والضياء ؛ ولعل من هذه الهجرة ما أُمر به رسول الله عليه الصلاة والسلام فى قول ربه له : « وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر » .

وقوله عز من قائل : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » .

والآن نتساءل : ما هو موقفنا من هذه الأنواع ؟ وكيف نهاجر اليوم ؟ . من الواضح الذى لا يحتاج إلى بيان أنه لا حيلة لنا فى الهجرة الطبيعية ، لأنها عمل الخالق ، ولا حول ولا قوة للمخلوق العاجز الضعيف أمام حول الخالق القوى القدير ، وكل الذى يستطيع أن يكسبه الإنسان من مظاهر هذه الهجرة الطبيعية هى أن يتعظ بها ويعتبر ، فيعرف أن المتبدل المتغير هالك فان ، وأنه لا بد لهذه المخلوقات الكثيرة المختلفة من خالق باق دائم ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم . . وحبذا لو عرف الإنسان حق المعرفة أن ما هو فيه من حال اليوم لن يدوم ، وربما ذهب غدا أو بعد غد ، فينتهز الفرصة ولا يضيعها ، بل يستغل ما هو فيه من وضع أحسن استغلال ، فيأخذ من الصغر للكبر ، ومن الشباب للهرم ، ومن الصحة للمرض ، ومن القوة للضعف ، ومن الحياة للموت ، كما أرشد إلى ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام فى بعض ما أُثر عنه من حديث شريف . . .

وكذلك من الواضح الجلى أننا قد حرمنا شرف الاشتراك

مع نبى الإسلام عليه أزكى الصلاة والسلام حين خرج مهاجرا من مكة إلى المدينة ، وحيل بيننا وبين هذا الشرف إلى الأبد ، لأن الرسول قد قال لمن عاصروه ولمن يأتى بعدهم : « لا هجرة بعد الفتح » . .

ولكننا قد نستطيع ما هو أقل درجات من هذه الهجرة ، وهو أن يهاجر المسلم المستعبد من بيئته التى يعيش فيها ، والتى تمتلىء بالسيئات والمنكرات إلى بيئة أخرى يستطيع أن يعبد فيها ربه كما يحب ، ويستطيع أن يبنى فيها بناء قويما لا خبث فيه ولا دخل ، ولعله من الخير أن نستذكر هنا قول الحق تبارك وتعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ . فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا ؛ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما » .

وإذا كنا لا نستطيع أن نبلغ الغاية فى الهجرة الحسية لأسباب وموانع كثيرة ، فأمامنا ميدان الهجرة الروحية النفسية الخلقية ، قد بسطه الله لنا بسطا ، ومده أمامنا مدا ، والرسول الكريم هو الذى يقول : « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه » وهو الذى يقول . « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » .

ومعنى هذا أن ملاك الأمر كله فيما نحتاج إليه من هجرة هو النية الخالصة ، والرغبة الصادقة فى إرضاء الله تعالى ، والانتهاء عما حرمه ، والخضوع لما أمر به ، ويوم نفعل ذلك نكون قد هاجرنا ، وكتبنا عند الله من المهاجرين .

فهل نحن فاعلون ؟ . . .

يوم الإسراء والمعراج

ما يكاد الثلث الأخير من شهر رجب الفرد يقبل على المسلمين ، حتى يأخذوا فى الحديث عن الإسراء والمعراج ، والاستعداد لمناسبتهما بما ألفوه من ألوان الذكرى والاحتفال ، فهذا قد نذر أن ينحر ذبيحة ، وذاك قد اعتزم أن يقيم احتفالا كبيراً ، وهؤلاء قد قرروا أن يفتحوا على الناس فيضامن البحوث والخطب والقصائد ، وهم كشأنهم دائماً ، يظلون طيلة الأيام صامتين أو غافلين ، حتى تقبل المناسبة فيحدثوا الضجة وينصبوا « الزفة » ، فإذا ما انتهت رجعوا سيرتهم الأولى ، وما جاءت ملة محمد العظيم عليه الصلاة والسليم ، لتكون حلةً أو شارة أو تجارة تروَّج فى موسم أو مناسبة ، ثم تركد أو تكسد فى بقية الأوقات والمناسبات ، بل جاءت لتحيي الرفات ، وتبعث الأموات ، وتحرك القلوب ، وتهز الجنوب ، وجاءت لتكون مصدر الحرارة الدائمة ، ومنبع القوة الدائبة ، فلا تكف عن الدفع إلى الأمام ، ولا عن إلهاب الخواطر والأفهام ، ولا عن تشغيل السواعد والأقدام ، فى سبيل الله : سبيل الحق

والخير ، وفى سبيل دعوته: دعوة العدل والبر : « لا تدع مع الله إلها آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون » !.

هذا مثلا حادث الإسراء والمعراج ، هو واضح فى الملة كأنه الشمس فى منتصف النهار ، يتحدث عنه القرآن كما تتحدث عنه السنة ، وخلاصته أن الله سبحانه أسرى بعبده محمد ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ، ثم عرج به إلى السموات العلى ، ليريه من آيات ربه الكبرى .

وكان الإسراء والمعراج بالجسم والروح ، وإلا لما كان الحادث معجزة ، ولما نزلت بشأنه فاتحة سورة تسمى سورة « الإسراء » ، ولما تحدثت سورة « النجم » عن المعراج ، ولما كان هناك مجال لتكذيب المكذبين واستبعاد المستبعدين .

ومن أعجب العجب أن يستلب حب الجدال والمراء عقولَ الأكثرين ، فيتعبوا ألسنتهم ويرهقوا أعصابهم ، ويقلقوا من حولهم بمحاوراتهم ومجادلاتهم حول حقيقة الإسراء ، متى كان ، وكيف كان ، وهل يمكن أن يكون ؟ وما شابه ذلك من حواش وذيول .

وقد كان جديرا بهؤلاء أن تنصرف هممهم إلى تدبر العظات والتماس الآيات فى حادث الإسراء والمعراج ، للاتعاظ بمعانيه والانتفاع بمغازيه ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا أولو الألباب ! . .

لقد أسرى الله بعبده محمد جسدا وروحا من مكة إلى بيت المقدس ، ليرحل تلك الرحلةَ الطويلة مشاهدا دارسا ، ومتمعنا فاحصا ، فلا يكتفى بهيام روحه فى الآفاق ، ولا يقتصر على تصوير الخيال أو حكم الأوهام ، بل يرى ويسمع ، ويلاحظ ويجمع ، ويطأ بركابه أرضاً طويلة فسيحة ممتدة ، يريد الله للقلة من صحابته أن يفتحوها غدا باسم الله ، وأن يجعلوها خالصة لوجه الله ، وكأن ذلك درس بليغ عميق موجع لأصحاب الخطرات والأوهام ، وعبيد التخيلات والأحلام ، الذين يمضغون الأمانى الواسعة الخرقاء كما تعلك الخيل اللجم الخرساء ، دون أن يفكروا فى تنفيذ أو إقدام . .

ومما يزيد ذلك الدرس عمقا أن الله اختار لنبيه أن يركب فى رحلته دابة هى «البُرَاق» ، وقد كانت قدرته سبحانه لا تعجز أن تنقله فى لمح البصر أو أقل منه، بلا براق أو ركاب ، ولكن ،

كأن الله يريد أن يعلمنا عن طريق نبيه اتخاذَ الوسائل والتذرع بالأسباب ، وأى أسباب ؟ ! . .

إنه يريد منا أن نحرص على الأسباب القوية السريعة الموصلة ، ولذلك كان البراق مضربَ المثل فى السرعة كما تصوره السيرة ، فهو حيوان يضع قدمه حيث ينتهى بصره ، وإذا أخذ فى هبوط طالت يداه وقصرت رجلاه ، وإذا أخذ فى صعود طالت رجلاه وقصرت يداه ، وتبارك الله الخلاق القدير . . .

وهذا صفى الرحمن ونبى الأمان ، وقائد الإنسانية والإنسان ، محمد صلوات الله وسلامه عليه ، يصل بيت المقدس ، فيجمع له ربُّه النبيين والمرسلين ، وكوكبةً من الملائكة المقربين ، ثم يجعله عليهم إماماليشعرنا بذلك أنه إمام المرسلين وخاتم الأنبياء ، وأن دينه شمل سائر الأديان ، وأن أتباعه يجب أن يسودوا العالمين بشرعتهم وهديهم ، لا بطغيانهم وتجبرهم ، فهم أتباع من ساد بفضل ربه الأوائلَ والأواخر : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . . .

ولعله مما يؤيد تلك السيادة أن الرسول ربط البراق فى حلقة المسجد الأقصى ، وجعل بيت المقدس نهاية رحلته فى الأرض وأول رحلته فى السماء ، كأنه يريد أن يقول إن فلسطين واسطة

العقد فى الوطن الإسلامى العزيز ؛ فيجب أن تُبذل فى حفظها وصونها المهج والنفوس .

وإن الشهداء والضحايا التى سقطت مجاهدة فى أرض فلسطين ، تنادى كل يوم من الأعماق ، وتصرخ من الأجداث ، مطالبة بدمائها فى أعناق الخونة المجرمين الذين طعنوها من الأمام والخلف فأضاعوها ، وباعوها بيع السماح فى سوق الدناءة واللؤم .

* * *

وما أروع هذا التصوير التأديبى الأخاذ ، الذى يعرض لنا جهات الشر فى أقبح الصور وأنكر الأشكال ، وهى تبدو أمام الرسول عليه الصلاة والسلام فى مظاهر رمزية ولوحات معبرة آسرة ، فتثير غضب الإنسان واشمئزازه ، وتجعله يفر من قبح الشر وخساسته إلى جمال الخير ورفعته . فهذه مثلا هى الدنيا تتبدى للرسول عجوزاً قبيحة شمطاء لم يبق من عمرها إلا النزر القليل ، ولكنها تناديه لتلفته عن رسالته فلا يستجيب ؛ وهؤلاء هم الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم ، يبدون قوما لهم أظفار من نحاس ، يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، وهؤلاء هم الذين يقولون مالا يفعلون ، يبدون أناسا تُقرض شفاههم بمقاريض من نار . وهؤلاء هم الذين

يتركون الحلال ، ويأتون الحرام ، يظهرون فى صورة أناس يتركون اللحم الناضج الطيب ، ويأكلون من اللحم الخبيث المنتن . . .

ويظهر الذين يأكلون الربا فى صورة أقوام بطونهم مثل البيوت . لا يستطيع أحدهم النهوض ، وتطؤهم السابلة . . . ويظهر الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما فى صورة أناس مشافرهم كمشافر الإبل ، فتفتح أفواههم ، ويلقمون أحجاراً تخرج من أدبارهم !. ولا عجب فهم « إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيرا » . . وتظهر الداعرات اللاتى يزنين ويقتلن أولادهن نساء معلقات من أثدائهن فى الهواء ؛ وهؤلاء هم الهمازون اللمازون ، يظهرون فى صورة أقوام يقطع من جنوبهم اللحم ويلقمونه ، ويقال لكل منهم : كل كما كنت تأكل لحم أخيك . . .

ويظهر المانعون للزكاة فى صورة قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ، ويأكلون الضريع والزقوم . وهذا قاطع الطريق يبدو كخشبة على الطريق ، لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شىء إلا خرقته . . . إلى غير ذلك من صور لا يسمعها ذو الإحساس أو يتخيلها إلا وتنفر

نفسه نفوراً شديداً من هذه المقابح ومرتكبيها ، خشية أن يصير يوما إلى ما صار إليه هؤلاء من خسران وهوان ! . . .

* * *

ويعرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملأ الأعلى ، ليشاهد ما يشاهد ، مما أجمله القرآن وأبهمه ، فكيف لنا نحن أن نفصله أو نرسمه ؟ . . . ثم أصبح بعد هذا كله مع قومه ؛ أفتراه يخشى أن يقص على الناس النبأ العجيب والحدَث الغريب ؟.. أفتراه يخاف لوم اللائمين ، أو سخرية الساخرين ، أو استهزاء المستهزئين ، والله يقول له : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين » ؟ ! . . . لا والله لن يكون منه خوف ولا إحجام ، بل جرأة فى الحق وإقدام . . .

تحدثنا السيرة أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لما عاد بعد الإسراء والمعراج قص على « أم هانئ » ما حدث ، فاستعظمته وإن لم تكذبه ، وخافت عليه من المشركين واستهزائهم إذا سمعوا القصة ، فتعلقت بردائه راجية تقول له : أنشدك الله يا ابن عمى ، لا تحدِّث بها قريشا فيكذبك من صدّقك من قومك ! . . .

فضرب بيده على ردائه ، وانتزعه منها فى قوة ، وخرج مصرا على التبليغ مهما كانت العاقبة : « والعاقبة للمتقين » . . .

وقص على الطاغين قصته ، فاتخذوه غرضا لسفاهتهم ، وهدفا

لتطاولهم وسخريتهم ، ولكن ، فى طوفان التكذيب الكاذب لا بد من مبصرين مصدِّقين ولو قلة ، ولا بد من مؤمنين بالحق البادى ولو كانوا ضعافا ، فهذا مثلا أبو بكر الرزين العاقل نراه وسط المعمعة التكذيبية السفيهة يصدِّق ثم يصدِّق ثم يصدِّق ، حتى يقول له الرسول عليه الصلاة والسلام . يا أبا بكر ، إن الله عز وجل قد سماك الصِّدِّيق ! . .

* * *

لقد رحل محمد بجسده — بعد أن امتلأت روحه نورا وطهرا — من مكة إلى بيت المقدس - وما أطولها من شقة — فى جزء من ليلة ، فكيف لا نرحل فى سنوات من ظلام الباطل والضلال إلى نور الهداية والإيمان ؟ ولقد فتح محمد بيت المقدس بدابة واحدة ، فكيف أضعنا بيت المقدس وما حوله، ومعنا المدافع والدبابات ، ومن خلفها سبعة جيوش طويلة عريضة ؟ ولقد عرج محمد إلى السموات العلا ليزداد رفعة وعلوا ، فكيف ينزل بعض الناس إلى الحضيض مرحلة بعد مرحلة ؟ . .

إن الباب مفتوح ، وموعد الإغلاق مجهول ، واللبيب من سارع . فليت كلا منا يبذل طاقته ، ويسعى جهده ، ويحقق فى دنياه ما يستطيع من محامد الفعال وكريم الأعمال ، والله فى عون العاملين .

يوم الفرقان

إن « يوم بدر » فى تاريخ الدعوة الإسلامية كالبدر فى منتصف الشهر ؛ كان الظلام من قبل ينشر رداءه ، هنا وهناك ، فجاء البدر الساطع الباهر بضوئه ، فمحاه وجلاه ، وكان الكفر قبل « بدر » ينشر ظلامه وقتامه ، ويبث عوائقه وألغامه ، فجاء « يوم بدر » على الباطل ، فجعله بإذن الله مدحورا : « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » .

ولولا أن الله قد كتب لعمر رضى الله عنه من التوفيق ما كتب حتى جعل « يوم الهجرة » بدءا للتاريخ فى الإسلام ، لكان من حق يوم بدر أن نؤرخ به ، ولولا أن التسمية بيوم بدر اشتهرت بين المؤرخين لكان من حقنا وحق تلك الغزوة الأولى فى الإسلام أن نسميها : « يوم الفرقان » ، وبخاصة بعد أن سماها التنزيل المجيد كذلك : « وما أنزلنا على عبدنا يومَ الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شىء قدير » .

و « الفرقان » كلمة تدل على مبالغة الفرق بين شيئين ، ومن

هنا سمى القرآن فرقانا : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا »، وذلك لأن القرآن الكريم نور يفرق بين الهدى والضلال ، وسُمِّيت الملائكة بالفارقات : « فالفارقات فرقا » ، لأنهم يفصلون بين الأشياء حسبما أمرهم ربهم . وسمى عمر بن الخطاب بالفاروق ، لأن الله فرق به بين الحق والباطل ، حينما اعتزت الدعوة بإسلامه ، فخرجت من طور الاستخفاء والكتمان إلى طور الظهور والإعلان .

و « يوم بدر » كان بحق وصدق « يوم الفرقان » ، لأنه أول موطن فى الإسلام فرق الله به بين الحق والباطل ، بحوله وقوته ، وتأييده ونصرته ، وتثبيته ورعايته : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » . .

وكان يوم بدر يوم الفرقان ، لأن الله تعالى قد فرق فيه بالحق بين القلة المسلمة المستضعَفة المستذلة فى الأرض ، وبين الكثرة الكافرة الباغية الطاغية على العباد ، فإذا الدنيا ترى ذلك المستضعفَ الذليل وقد سار عليًّا عزيزا ، منتصرا كريما : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون »

وترى الكافرَ الطاغيِ الباغى وقد انقلب خاسئا ذليلا ، مندحرا مكسورا : « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ، ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار » ؛ وحينئذ عرفت الدنيا أن الأمر كله بيد الله تعالى ، يعز من يشاء ، ويذل من يشاء : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » .

وكان « يوم بدر » يوم الفرقان بين الغنيِّ المستكثر بعدده وعُدَّته ، وسلاحه وشوكته ، وبين الفقير المؤمن المدرَّع بيقينه وعقيدته ، فقد خرجت قريش بخيلها وخُيلائها ، وشبابها ونسائها ، ومقاصفها ومعازفها ، وسلاحها وعتادها ، وزهوها وكبريائها ، وفى ألف من عددها ، كل منهم شاكى السلاح كامل العدة ، وخرج محمد صلوات الله وسلامه عليه فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، وهم بحاجة إلى الرواحل والسلاح والعتاد ، حتى جعل محمد — فيما يُرْوَى — يدعو من أجلهم قائلا : « اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عُراة فاكسهم ، اللهم إنهم جياع فاشبعهم » ! . فماذا كان ؟ فتح الله لهم بيوم بدر ، ورجع أصحاب محمد بالنصر والأجر ، والغنيمة والذخر : « ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليما » .

وكان « يوم بدر » يوم الفرقان ، إذ استبان فيه الحد الفاصل

بين الكذبة الأدعياء ، المتفاخرين بالباطل ، المجتمعين على الإثم ، المتداعين باسم المنفعة والشهوة ، فتحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، وتراهم كثيرين وأفئدتهم هواء ، وبين المؤمنين بربهم ، الواثقين بنصر خالقهم ، الموقنين بأن الله معهم ، سيوفقهم ويؤيدهم ، ويدافع عنهم ، ويبطش بعدوهم : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ، إن الله سميع عليم » . .

فبينما كان سيدنا محمد يقضى حقَّ الرجاء والاستعانة والمناجاة لربه بمثل قوله : « اللهم إنى أنشدك عهدَك ووعدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعْبَدْ فى الأرض » ، نراه يعطى القدوةَ فى اليقين والثقة وحسن الاعتماد على الله ، فيقول لأصحابه : « سيروا على اسم الله ، فقد رأيت مصارعَ القوم » ، ويردد قولَ ربه : « سيُهزم الجمعُ ويولون الدبر » .

* * *

وفى ليلة بدر يضع محمد يده على الأرض قائلا : « هذا مصرع فلان (من المشركين) إن شاء الله تعالى غدا » . ثم يضع يده على جزء ثان من الأرض قائلا : « وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى غدا » . ثم يضع يده على جزء آخر من الأرض

ويقول: « وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى غدا » . . .

فوالذى بعثه بالحق شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، ما أخطأوا تلك الحدود ، ولا جاوزوا تلك المواضع ، بل جعلوا يُصْرَعون عليها ، واحدا بعد واحد، بل شيطانا بعد شيطان ، وألقُوا فى حفرتهم ، وأقبل عليهم النبى يناديهم بأسمائهم ، ويقول لهم : « هل وجدتم ماوعد ربكم حقا ، فإنى وجدت ماوعدنى ربى حقا ؟ » .

فقال له بعض أصحابه : أتكلِّم أجسادا لا أرواح فيها ؟ . فأجاب : « ما أنت بأسمع منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يردوا على » . . وصدق التنزيل المجيد : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » ! . .

وكان يوم بدر يوم الفرقان بين المتجرين بعرض الحياة الزائل ، الحراص على عاجل اللذات وباطل الشهوات ، المتمسكين بالعيش فى الدنيا يرونه غاية النعيم ؛ وبين المخلصين للمبادئ ، الذائدين عنها ، الفانين فى سبيلها ، الراغبين فيما هو أعلى من الدنيا وأبقى من أيامها : فيما عند الله ، وما عند الله خير وأبقى ، « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان(١) لو كانوا يعلمون » .

(١) أى الحياة الخالدة الكاملة .

كان عمير بن الحمام رضى الله عنه على مقربة من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يوم بدر ، فقال الرسول قبيل القتال ، يحرّض أصحابه : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، والذى نفسُ محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتَل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » . فقال عمير : بخ بخ ! . . . فقال الرسول : لم تبخبخ يا عمير ؟ . . فقال : رجاءَ أن أكون من أهلها ؛ فقال له الرسول : فإنك من أهلها . .

فأخرج عمير تمرات ، وجعل يأكل منها استعانةً بها على الجهاد ، ثم قال وكأنما يحدّث نفسه : أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ .. ثم رمى التمرات من يده وقال : والله لئن بقيت حتى آكلها إنها لحياة طويلة ! ! . . .

وأخذ سيفه ، وخرج فقاتل القوم حتى سقط شهيدا ، فكان من أهلها ! ! . .

نعم كان يوم بدر يوم الفرقان ، ولازال صالحا أن يكون بذكراه ووحيه يوم فرقان ، ولو أعد المسلمون ليوم بدر عدته ، وقابلوه بما هو أهل له ، من تبصر واستذكار واستيحاء ، وأخلصوا النية فى الاقتداء بأهل بدر فى الثقة والإيمان والوفاء ،

لكان لهم يومُ فرقان : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم » .

* * *

هذا حديث الرمز والإشارة إلى يوم الفرقان : يوم بدر ؛ ولكن هذا اليوم له قصة ، فيها وقائع وأحداث ، فكيف وقعت ؟ . . وكيف سارت ؟ . .

قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صحابته وأتباعه ثلاثةَ عشر عاما فى مكة قبل الهجرة ، يراوح الناس ويغاديهم بدعوة ربه التى تهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم . وكان رسول الله خلالَ هذه المدة يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، ولكن المشركين لم يسمعوا ولم يطيعوا ، بل لم يقفوا على الحياد تجاهَ الدعوة الإلهية المجيدة ، فأخذوا يعارضونها ويناوئونها ، ويتربصون بها الدوائر ، ويصبون ألوانَ العذاب والاضطهاد على الرسول وقومه ، والمسلمون صابرون محتملون .

وبلغ العدوان مداه ، ووصل الظلم قمّته ، فاجتمع فراعينُ الإشراك والكفر فى « دار الندوة » ، وقرروا فى مؤامرتهم

التخلص من محمد عن طريق قتله بأيدى شباب يمثلون القبائل المختلفة ، حتى يضيع دمه بين القبائل .

وأعلم الله رسوله بما دبر المجرمون ، وأوحى إليه بالهجرة ، فاستجاب لتوجيه ربه ، وهاجر بعد أن هاجر أكثر أتباعه الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

وفى المدينة بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم يبنى المجتمع الإسلامى الأول ، بعد أن تنفس المسلمون الصعداء من الأهوال التى ذاقوها على أيدى المشركين ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يتذكر جيدا تلك الأفاعيل السود التى فعلها الكفار بالمسلمين ، وكان كذلك يتذكر جيدا أن المهاجرين قد اضطروا إلى ترك أوطانهم ومساكنهم ، وديارهم وعقارهم ، وكثير من ممتلكاتهم ، وأن المشركين قد استبدوا بهذه الممتلكات ، فكان لابد من تعويض عن هذه الخسائر ، وكان لابد من تأديب لهؤلاء الذين مازالوا يقفون حجر عثرة فى طريق الدعوة الإلهية ، ومن ردع لهؤلاء الذين ما زالوا يتربصون بها الدوائر ، ويصدون عن سبيلها ، ويحولون بين الناس وبين الاهتداء بها أو الاستماع إليها .

ولذلك فكر الرسول فى التعرض لقوافل المشركين المترددة بين مكة والشام ، والتى تمر على المدينة ذهابا وجيئة ، بحكم أن المدينة تقع بين مكة والشام . وبسبب هذه الفكرة الحكيمة الرشيدة العادلة وقعت غزوة بدر ، التى كانت أول معركة دارت بين كتيبة الإيمان وجموع الشيطان .

كانت هذه الغزوة فى السنة الثانية من الهجرة ، وفى شهر رمضان المبارك من هذه السنة . ولجلال هذه الغزوة وسمو شأنها سماها المؤرخون بطائفة من الأسماء تدل على خطرها وعظم شأنها ، فسموها غزوة بدر الكبرى ، وغزوة بدر العظمى ، ويوم وقعة بدر ، وسماها القرآن يوم الفرقان ، ويوم التقى الجمعان ، فذلك حيث يقول القرآن فى سورة الأنفال : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شىء قدير » .

وبعضهم سماها : يوم البطشة الكبرى ، أخذاً من قول الله تبارك وتعالى : « يوم نبطش البطشة الكبرى ، إنا منتقمون » .

* * *

ولكن الرسول لم يبدأ فى مقدمات هذه الغزوة إلا بعد استطلاع واستكشاف واستنباء ، فقد قضى الفترة التى أعقبت الهجرة وسبقت الغزوة فى إرسال السرايا والطلائع التى يريد منها إشعارَ قريش بأن المسلمين لم يذلوا ولم يهونوا بسبب هذه الهجرة ، بل هم ما زالوا فى تماسك وتعاون ، ويريد منها كذلك أن يعقد مصالحات ومعاهدات مع الذين يحيطون بالمدينة من جموع أو قبائل ، حتى لا تأتيه الطعنات من الخلف إذا ما بدأ الصراعَ مع المشركين وجها لوجه ، كما يريد التعرض لقوافل قريش لتعويض ما أخذوه .

وقد أرسل النبي فى شهر رمضان من السنة الأولى عمه حمزة ابن عبد المطلب، ومعه ثلاثون فارسا من المهاجرين ، إلى ناحية تسمى « العيص » بالقرب من ساحل البحر ، ليعترض طريق قافلة كانت ذاهبة إلى الشام يقودها أبو جهل .

وفى شوال بعث النبي عبيدة بن الحارث ومعه ثمانون رجلا ، حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل « ثنية المرة » للاستطلاع والاستكشاف .

وفى طليعة السنة الثانية خرج النبي بنفسه حتى بلغ قرية « ودان » ، وعقد مصالحة مع « بنى ضمرة » ، وكتب عن ذلك

كتابا جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة ، بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصرةَ على من رامهم (أى هاجمهم) ، إلا أن يحاربوا فى دين الله ، ما بَلَّ بحرٌ صوفة (أى ما بقى فيه ماء يبل الصوفة) ، وان النبى صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصره أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله » .

وغاب النبى فى هـــذه السرية نحو خمسة عشر يوما بعيداً عن المدينة .

* * *

وفى شهر جمادى الأولى بلغ النبيَّ أن قافلة ضخمة لقريش اخذت طريقها إلى الشام ، وفيها ما قيمته خمسون ألف دينار ، وقد حملها ألف بعير ، ويقودها أبو سفيان بن حرب . فخرج الرسول ومعه نحو المائتين ، وسار حتى بلغ « العشيرة » من « بطن ينبع » ، وهناك علم أن القافلة قد مرت قبل وصوله .

وحالف الرسول فى هذه السرية « بنى مدلج » .

وفى شهر رجب أرسل النبى عبد الله بن جحش الأسدى مع فريق من المهاجرين ، وأعطاه كتابا مختوما ، وأمره

ألا يفضه إلا بعد يومين من مسيره فى الطريق الذى عينه له الرسول . وبعد اليومين فتح عبد الله الخطاب فإذا فيه : « إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصَّد[1] لنا قريشا ، وتعلم لنا من أخبارها » . فلما قرأ عبد الله الكتاب وعرف ما فيه ، سارع بالاستجابة قائلا : « سمعا وطاعة » .

وحدثت مناوشة بين عبد الله وزملائه وبين قافلة لقريش ، ووقع شىء من القتال انتصر فيه عبد الله وزملاؤه ، وعادوا ببعض الغنائم ، فغضب الرسول من فعلهم وقال لهم : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » !. (يقصد شهر رجب) .

* * *

وجعل الرسول ينتظر عودةَ القافلة التى يقودها أبو سفيان من الشام إلى مكة ، ليتعرض لها ، ويستولى عليها كتعويض جزئى عن الأموال التى أخذها المشركون من المهاجرين ، وكان يقصد أيضا إضعافَ الناحية الاقتصادية عند قريش ، لعلمه بأن هذه الناحية مرتبطة ارتباطا تاما بالناحية العسكرية ، فإذا ضعف

---

(١) أى كن على مقربة من قريش وراقب أحوالها .

التموين أو قل ، أثر تأثيرا قويا فى حالة القتال والحرب .

وأرسل النبى اثنين من صحابته ، هما طلحة بن عبيد الله وسعيد ابن زيد ، ليستطلعا أخبار القافلة ، ويترقبا عودتها ، حتى يخبرا الرسول عند اقترابها فيتعرض لها ، فخرج الصحابيان ونزلا عند « كشد الجهنى » فى مكان اسمه « الحوراء » ، ولما علما باقتراب القافلة سارعا بإخبار الرسول بذلك .

وانتهز الرسول الفرصة ، واستخدم عنصرَ السرعة ، فلم يُضع الوقت ، بل عجل باستدعاء المسلمين ليشاورهم ، حتى لا يحسوا بأنه قد انفرد بالأمر وحده ، وإن كان نبيا ورسولا ، فإن الله تعالى قد قال له : « وشاورهم فى الأمر » ، وقال عن المسلمين : « وأمرهم شورى بينهم » .

جمع الرسول المسلمين وقال لهم : « هذه عير قريش (أى قافلتهم) ، فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله ينفلكموها » (أى يجعل ما فيها أنفالا لكم ، أى غنائم مباحة لكم) .

فاستجاب فريق من المسلمين للخروج ، ولم ينشط فريق آخر لهذا الخروج ، وذلك لأن الرسول لم يفرض عليهم أن يخرجوا . وظن الباقون أن الأمر لا يزيد عن مهمة الاستيلاء

على القافلة ، وهى مهمة يسيرة ، لأن القافلة محروسة بنحو أربعين رجلا ، والذين استجابوا قد زادوا عن الثلاثمائة بقليل ، فلا داعى إذن للتعبئة العامة .

خرج الرسول بالذين استجابوا فى الثامن من رمضان ، بعد أن كلف عبد الله بن أم مكتوم بأن يصلى بالناس فى المدينة ، وجعل أبا لبابة واليا عليها ، وأذن لعثمان بن عفان أن يبقى لتمريض زوجته رقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال له النبي : « إن لك أجر رجل وسهمه » .

وكان عدد الخارجين مع الرسول ثلاثمائة وخمسة ، ومعهم سبعون بعيرا ، فكان الثلاثة أو الأربعة منهم يشتركون فى ركوب البعير الواحد ، فيركب الأول مسافة وينزل ، ثم يركب الثانى ، ثم يركب الثالث ، وهكذا . واشترك النبي مع على بن أبى طالب ومرثد ابن مرثد الغنوى فى ركوب بعير ، فقال على ومرثد : « يا رسول الله ، اركب ونحن نمشى عنك » ، فرفض الرسول ذلك ، وأبى إلا أن يأخذ حصته من المشى كما يأخذان ، وقال لهما : « ما أنتما بأقوى منى على المشى ، وما أنا بأغنى منكما عن الأجر » .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو لقومه بالفوز والتوفيق ، فيقول لربه جل جلاله كما تقدم : « اللهم إنهم حفاة

فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، اللهم إنهم جياع فأشبعهم ».
وهذا الدعاء يصور الحالة الاقتصادية السيئة التى كان عليها المسلمون والتى نشأت بسبب اضطرار المسلمين إلى المهاجرة ، وبسبب استيلاء قريش على ممتلكات المسلمين المهاجرين .

ولما بلغ الرسول مع قومه المكانَ الذى كان مقدراً أن تمر منه القافلة ، علموا أن أبا سفيان قد نجا بها ، لأنه سلك بها طريقاً آخر . .

فكيف كان ذلك ؟ . .

كان أبو سفيان يحس فى أعماق نفسه بأن المسلمين سيترصدون له ، وأنهم إذا استطاعوا الوصول إليه فسيستولون على كل ما معه ، ولذلك كان يتحسس الأخبار وهو فى طريقه بالقافلة . وحدث أن سأل أبو سفيان بعضَ الأعراب الذين لقيهم فى الطريق : هل شاهدت أحدا ؟ . فأجابه بأنه لم ير سوى رجلين ألمَّا بالماء فاستقيا منه ، ومعهما بعيران لهما ، ثم ارتحلا .

فذهب أبو سفيان إلى ناحية البئر ، وبحث فى الأرض فوجد فيها بعرات ، ففتّ بعضها بيده فوجد فيها نَوَى يثرب ، فأدرك أن الرجلين من المسلمين ، وأحس أن هناك حركةً تتبع له ، فسارع بأخذ القافلة بعيداً عن الطريق المألوف ، واتجه بها نحو

الساحل حتى يسير بها فى طريق غير مألوف ، ولم يكتف بذلك ، بل أرسل ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة ، ليخبر أهلها بأن محمداً وقومه يتربصون بالقافلة ، ويريدون الاستيلاء عليها ، ولذلك يلزمهم أن يسارعوا بالاتجاه إلى القافلة لحمايتها . وعجل ضمضم بالذهاب إلى مكة حتى بلغها ، بعد أن قطع أذنى بعيره ، وجدع أنفه ، وحوَّل رحله ، ووقف فوق الجمل بعد أن شق قميصه من خلف ومن قدام ، وجعل يهتف ويصيح :

« يا معشر قريش ، يا أهل مكة ، اللطيمةَ اللطيمة (أى القافلة فيها التجارة) ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها . الغوثَ الغوث » ! .

واستجابت قريش لدعوة الشر ، وزادهم تحريضاً أبو جهل اللعين ، حتى أجمعوا على الخروج ، حتى إن أبا لهب لما عجز عن الخروج أو جبن عنه أرسل نائباً عنه هو العاص بن هشام فى مقابل أربعة آلاف درهم ، كان العاص مدينا بها لأبى لهب ، وعجز عن سدادها .

ولما هم أمية بن خلف أن يقعد جاءه عقبة بن أبى معيط ومعه مجمرة فيها بخور ، وجاء أبو جهل ومعه مكحلة ومرود ، ووضع عقبة المجمرة بين يدى أمية ، وقال له مستهزئاً ومعرِّضاً

يا أبا على ، استجمر ، فإنما أنت من النساء !. وقال أبو جهل : اكتحل يا أبا على ، فإنما أنت امرأة ! ! .

فثارت نفس أمية ، وخاف من الفضيحة والعار ، وقال لمن حوله : ابتاعوا لى أفضلَ بعير فى الوادى .

* * *

وندع هذه المجموعة المشتركة التى قاربت الألف تتابع خطواتها الأثيمة نحو بدر ، ونعود لنرى ماذا صنع الرسول وصحابته . . .

لقد بلغوا طريقَ القافلة وبحثوا عنها ، ثم عرفوا أنها أفلتت وضاعت من أيديهم للمرة الثانية . وبينما هم فى تفكير وتأمل لما حدث ، بلغهم أن قريشا قد خرجت تريد غزو المسلمين والتنكيل بهم ، تأديباً لهم على تفكيرهم فى التعرض للقافلة . . . وهنا جاء الموقف الحاسم . .

لقد خرج المسلمون فى عددهم القليل الذى عرفناه ، وكل فكرتهم عن الأمر أنهم سيعترضون القافلة ، ويستولون عليها فى مقابل ما أخذته منهم قريش .

ولكنهم بعد خروجهم عرفوا — كما رأينا — أن القافلة

قد فرت ، وأن قريشا قد خرجت لقتالهم ، فماذا يكون من المسلمين ؟ .

أيرجعون أم ينتظرون ؟ ... إن عددهم القليل سيلاقى ، إذا انتظروا ، قريشا بعددها وعدتها ، وبخيلائها وبغيها ، فالموقف دقيق ، ولكن التقهقر أشد خطراً ، وأسوأ عاقبة ، لأنه سيورث مسبة وتوهيناً ، وبذلك لا تعلو كلمة المسلمين .

فلا بد إذن من الصبر .. وليكن ما يكون ! .

وقال أصيحابى : الفرار أم الردى ؟

فقلت : هما أمران أحلاهما مر
ولكنما أمضى لما لا يعيبنى
وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

وأراد الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن يستشير قومه ، كعادته دائماً ، لا يحب أن ينفرد برأى ، ولا أن يفرض وجهة ، ولا أن يسوقهم إلى خطة ، فقال مستشيراً ومثيراً :

إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول ، فما تقولون ؟ العير أحب إليكم من النفير ؟ ! .

فقال المقداد بن عمرو :

يا رسول الله ، امض لما امرك الله ، فنحن معك . والله

لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون ! ولكنا نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، مادامت منا عين تطرف ، فوالله الذى بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا إلى برك الغماد (بلد بالحبشة) لسرنا معك ! .

وبدا السرور على وجه الرسول من هذه الإجابة وتلك الحماسة ، ولكنه عاد يقول مرة بعد أخرى : أشيروا علىَّ أيها الناس ! .

لقد سمع كلمة المهاجرين . . . سمعها صريحة جريئة مدوية ، ولكنه أراد أن يسمع كلمة الأنصار ، وكان حريصاً على أن يسمع هذه الكلمة ، لأن المعاهدة التى عقدها مع الأنصار فى بيعة العقبة قبيل الهجرة كانت تفيد أن ينصره الأنصار إذا هوجم داخلَ المدينة ، فخاف الرسول أن يظن الأنصار أنه يسوقهم إلى حرب لم يتفقوا عليها ، لأنها خارج المدينة ، وهم قد عاهدوه من قبل على أن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ، ولم يبايعوه على نضال أو كفاح خارج المدينة ، ولذلك أراد أن يستوثق من موقفهم ، ويتأكد أنهم حين يخرجون إلى الغزوة ، يخرجون

باختيارهم وموافقتهم ، وبذلك تصدق مواقفهم، وتثبت أقدامهم في سبيل الله .

ولذلك قال سعد بن معاذ الأنصاري حينما سمع هذا السؤال يتكرر من الرسول : لعلك تريدنا معاشر الأنصار يارسول الله ؟ . فقال النبي : أجل ! .

فقال سعد : يا رسول الله ، قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها ألا ينصروك إلا في ديارهم ، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فاطعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت كان أحبَّ إلينا أخذُه مما تركت، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، وإنا لصُبُر في الحرب (جمع صبور) ، صُدُق في اللقاء (جمع صدوق) ، لعل الله تعالى يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله تعالى .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين : العير أو النفير ، فوالله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » ! .

وهكذا تكون الثقة ، ويكون الإيمان بعون الله ونصره ، فالرسول يحدثهم والمعركة لم تبدأ بعد ، فيقول لهم كأنه يرى الآن الأماكن التى ستهوى إليها رقاب أولئك الكافرين المشركين ، بعد أن يصيبهم الخذلان ، وتلحقهم الهزيمة ، وتدور عليهم الدوائر ، وينزل المسلمون فيهم تقتيلا وتدميرا ، جزاء البغى والطغيان اللذين كانا من أئمة الشرك والكفران .

وهكذا انطلق الجيش كله مؤمناً موقنا واثقاً ، قد اجتمع على كلمة واحدة ، ووجهة واحدة ، وقائد واحد ، وهدف واحد ، هو إعزاز الحق ، وإبطال الباطل ، والانتصاف من البغاة الظالمين .

* * *

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم فريقاً من أصحابه بأن يقوموا بحركة استطلاع واستكشاف واستنباء ، فوجدوا غلامين فى بعض الجهات ، فأحضروهما إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فأخذ يسألهما ، يريد أن يستنبط منهما أخبار قريش والمشركين ،

وسألهما عن عدد الخارجين من قريش ، فقالا له : لا ندرى ! .
فسألهما : كم ينحرون من الذبائح فى اليوم لأجل طعامهم ؟
فقال الغلامان : إنهم ينحرون يوما تسعا ، وينحرون يوما عشرا.

فاستنتج النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك عددهم ، فقال : القوم بين التسعمائة والألف . ذلك لأنه أدرك أن الذبيحة تكفى فى العادة مائة أو نحوها .

ثم سألهما النبي عمن خرج من كبار المشركين ، فذكروا له أسماء فريق منهم ، فعاد النبي يثير عوامل الشجاعة والاهتمام فى نفوس أتباعه ، فقال لهم : هذه مكة ألقت إليكم بأفلاذ كبدها.

* * *

ونعود لنرى ماذا كان من شأن أبى سفيان . .

لقد نجا بالقافلة ، إذ جانب بها نحو الساحل ، وابتعد كثيراً عن الطريق المألوف ، واستطاع أن يهرب بما فيها . .

ولما اطمأن إلى نجاة القافلة عاد فأرسل رسولا ثانياً إلى أهل مكة ، يقول لهم إنه لا داعى للخروج ولا للرحيل ما دامت القافلة قد نجت وسلمت .

ولكن أيرضى الغرور والكبرياء بذلك ؟.

أيقبل الطغاة من المشركين أن يستعدوا للقتال ، ثم يعودوا بلا نزال ؟ .

لقد عارض أبو جهل اللعين فى العودة وقال : والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم عليه ثلاثا، تنحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف لنا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها ! .

وسارت قريش إلى موطن القتال ببغيها وغرورها وكبريائها، ولما دنوا من مكان المسلمين أرسلوا عمير بن وهب الجمحى يستطلع لهم الأخبار ، فجال حول معسكر المسلمين من بعيد جولات ، وعاد يقول للمشركين عن المسلمين :

إنهم ثلثمائة أو يزيدون قليلا ، أو ينقصون قليلا ، لا كمين لهم ولا مورد ، ولكنهم قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم ،فلا يموت الرجل منهم قبل أن يقتل رجلا مثله ! .

ونزل الرسول عليه الصلاة والسلام بقومه عند أول ماء قابلهم قرب بئر بدر . وكان بعد هذا الماء أماكن أخرى للماء تقع بين المسلمين والكافرين ، فجاء الحباب بن المنذر إلى النبى صلوات الله وسلامه عليه وقال له : يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل الذى نزلته ، أهو منزل أنزلكه الله ، فليس لنا أن نتقدمه

أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ .

فقال عليه الصلاة والسلام: بل هو الرأى والحرب والمكيدة.

فقال الحباب : يارسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء(أقرب ماء) من القوم (المشركين) فننزل ، ثم نعور ما وراءه من القُلُب (أى نقطع أماكن المياه بعضها فى بعض ، حتى يسيل الماء كله فى مجتمع واحد) ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملأه بالماء ثم نقاتل القوم (والماء من ورائنا جميعه) فنشرب وهم لا يشربون ! .

ورأى النبي أن هذا هو الرأى الرشيد ، فلم يكبر عليه أن يرجع إليه ، وأن يأخذ به ، فنفذ ما أشار به الحباب ، معلنا أن الأمور تعالج بالشورى ، وذلك لأن الله تعالى يقول له : « وشاورهم فى الأمر »، ويقول عن المؤمنين : « وأمرهم شورى بينهم » .

وهكذ انرى أن المسلمين كانوا يعرفون تأثير «التموين» فى تسيير المعركة ، وفى طليعة مواد التموين الماء ، فهم قد حرصوا على أن يجعلوا مكان الماء كله خلف ظهورهم وفى حمايتهم ، ولا يكون عند المشركين أو فى حوزتهم منه شىء ، وبذلك يستطيع المسلمون

أن ينتفعوا بالمـاء شربا وسقيا واستعمالا ، بينما لا يستطيع المشركون أن ينالوا منه شيئا .

وفى أول المعركة قال الصحابى سعد بن معاذ : يانبى الله ، نبنى لك عريشا تـكون فيه ، ونُـعِـدُّ عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله ما نحن بأشد حبا لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

وهنا اثنى النبى صلى الله عليه وسلم على سعد بن معاذ ، لأن كلماته تدل على وفاء للرسول وإعزاز لشخصه ، وقبل الرسول بناء العريش والبقاء فيه ، لـكى يستطيع إدارة المعركة منه ، ولـكى يشرف على الميدان فيستطيع تدبير ما يلزمه ، ولم يكن هذا عن خوف من الحرب ، أو خشية النزول إلى الميدان ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه أشجع الشجعان ، وكان فتى الفتيان ، وكان يلتحم فى المعـارك مع أعدائه ، حتى ليقول الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه فى ذلك : كنا إذا اشتد البأس

اتقينا برسول الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقربَ إليه منا !

* * *

وتراءى الجمعان ... ولا بد لكى تشتعل المعركة من شرارة تشعلها ، فكيف جاءت هذه الشرارة ! ؟ .

لقد اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومى من بين صفوف المشركين إلى صفوف المسلمين ، يريد أن يبلغ الحوض الذى فيه الماء لكى يهدمه . ويظهر أنه اختار ناحية ضعيفة من النواحى ، لا يوجد فيها حراسة أو رقابة شديدة ، ولكن حمزة ابن عبد المطلب لحظه وهو يتقدم نحو الحوض فطعنه ، فأصابت الطعنة ساقه ، ولكن المشرك العنيد أصر على مواصلة الاقتراب من الحوض ، يريد أن يحدث فيه ثَلْماً ، فعاجله حمزة وضربه ضربةً قضت عليه .

وهنا اندلعت نار المعركة ، وخرج من صفوف المشركين ثلاثة من العمالقة ودهاقين المشركين ، هم : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة بن ربيعة ، وطلبوا المبارزة من المسلمين . . فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار أهل المدينة ، فرفض المشركون أن يقاتلوهم ، وقالوا : نريد أكفاءنا من أبناء عمومتنا (يقصدون المسلمين المهاجرين من أهل مكة) ،

وقالوا : ما لنا من حاجة إلى هؤلاء ، إنما نريد قومنا ! . فنادى النبي صلى الله عليه وسلم عَلَى على بن أبى طالب ، وحمزة ابن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وأمرهم بالخروج إليهم، فقضى الثلاثة المسلمون على الثلاثة المشركين فى جولة سريعة ، دون أن يصاب المسلمون بسوء . عدا أن عبيدة أصيب بجرح فى ساقه من عدوه . وتروى السيرة فى بعض مصادرها أن الرسول عليه الصلاة والسلام جاء إلى عبيدة ، وأدنى خده من ساقه الجريح، وقال له : أشهد أنك شهيد ! .

* * *

وكانت رؤية الدماء كفيلةً بالتحام الفريقين فى قتال عنيف، وكان ذلك صبيحةَ الجمعة السابع عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة .

وهكذا شهد رمضان : شهرُ الصوم والجوع والتخفف من المتاع ، معركةً بين الحق والباطل ، أراد الله لها أن تكون جولة أولى ينتصر فيها المسلمون ، فيعز دينهم فى الأرض .

وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو ويقول : اللهم هذه قريش ، قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذِّب رسولك ، اللهم فنصرَك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعْبَد فى الأرض .

وانخرط الرسول فى الدعاء حتى أشفق عليه أبو بكر الصديق ، وحتى سقط رداء النبى من فوق كتفيه ، فقال له أبو بكر : يا رسول الله ، بعضَ مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك . ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام ظل يدعو ، ثم خفق خفقة يسيرة برأسه ، رأى خلالها ما وعده ربه من نصر ، فانتبه منها مستبشراً ، وقال محرضاً على القتال ، ومثيراً على الجهاد ، وواعدا بحسن الثواب : والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة .

وأعطى المسلمون أولئك المشركين دروسا لا تنسى فى الإقدام والثبات والحرص على الجهاد أو الاستشهاد ، ورأينا فى هذه الغزوة المباركة كيف أقدم فتيان ، هما ابنا عفراء ، فقتلا عدوَّ الله أبا جهل . وجاء النصر عاجلا سريعا بمقتضى هذا الإيمان الوافر ، وذاك الحرص البادى على الشهادة ، وذلك الاستخفاف بالحياة ومتاعها ، وتنزل قرآن الله عز وجل يصور هذه المعركة ؛ وتضمنت سورة الأنفال هذا التصوير ، وحسبنا أن نورد من السورة هذه الآيات البينات . . ومن شاء الاستقصاء رجع إلى مصادره .

يقول الله تبارك وتعالى. «واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، والله على كل شىء قدير، إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى، والركب أسفل منكم، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد، ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيي من حى عن بينة، وإن الله لسميع عليم، إذ يريكهم الله فى منامك قليلا، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر، ولكن الله سلّم، إنه عليم بذات الصدور.

وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا، ويقللكم فى أعينهم، ليقضى الله أمراً كان مفعولا، وإلى الله ترجع الأمور، يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط، وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإنى جار لكم؛ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال: إنى برىء منكم، إنى أرى

ما لا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب ، إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم ، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم . ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

ونستطيع أن نقول ، إن غزوة بدر كانت فتحاً مبيناً فى تاريخ الإسلام ، فهى على الرغم من عنصر المفاجأة وقلة المجاهدين من المسلمين فيها ، قد وصلت بالمسلمين إلى نتائج هامة ، منها أنه قد استقر بها وضع المسلمين وقوى جانبهم ، وانكسر المشركون أمامهم لأول مرة ، فأخذ المسلمون يدركون عملياً أنهم قادرون على الوقوف فى وجه الشرك لتأديبه وتقليم أظافره ، بعد أن زالت الهيبة الكاذبة للمشركين من نفوس المسلمين المستضعفين بالأمس .

وكانت غزوة بدر بداية انطلاق موفّق فى نشر الدعوة وبناء المجتمع الإسلامى ، وكانت تزكية لأصحابها خير تزكية ، حتى قال النبى الكريم : لعل الله اطلع على أهل بدر فقال ، « اعملوا ما شئتم ، فإنى قد غفرت لكم » .

ولو لم يؤرخ المسلمون بيوم الهجرة ، التى كانت فاصلة بين عهدين ،

لكان من حقهم أن يؤرخوا بيوم بدر ، الذى سماه الله بحق « يوم الفرقان » .

* * *

قُتل كثير من المشركين فى غزوة بدر ، بينما استشهد قليل من المسلمين ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة . واختلف القوم فى هذه الغنائم ، فقال المجاهدون ، نحن أولى بها لأننا قاتلنا ، وقال المطاردون : نحن أولى بها لأنه قد شغلتنا المطاردةُ عن جمع الغنائم ، وقال حراس العريش : نحن أولى بها فقد شغلتنا الحراسة !.

وقال النبي : اتركوا كل شيء كما هو حتى يأتى حكم الله . وجاء الحكم الإلهى فى الغنائم ، وقد أشارت إليه الآيات السابقة فى صدرها ، فقسم النبي الغنائم على الجميع ، وأعطى حصةَ الشهيد من الغنائم لورثته ، وأعطى نصيبا لمن تخلف فى المدينة وكان يقوم بعمل ، أو كان له عذر مقبول فى التخلف .

وكان هناك عدد كبير من الأسرى المشركين ، فوزعهم النبي على الصحابة لحراستهم والقيام بأمرهم حتى يُفصل فى شأنهم وقال لهم النبي : استوصوا بالأسرى خيرا ! .

ثم استشار النبي صحابته بعد ذلك فى أمر الأسرى ، فأشار

عمر بقتلهم ، لأنهم رءوس الكفر وأئمة الضلال ، وأشار أبو بكر بفدائهم ، فقال النبي : مثل أبو بكر كمثل إبراهيم إذ قال : فمن تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، وكمثل عيسى إذ قال : إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ... ومَثل عمر كمثل موسى إذ قال: ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، وكمثل نوح إذ قال : رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا .

ومال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى رأى أبي بكر ، فأعلن أن كل أسير يستطيع أن يفدى نفسه بالمال ، أو بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ، إذا كان يعرف القراءة والكتابة . وأطلق النبي سراح بعض الأسرى لعجزهم ، أو مراعاة لظروفهم ، وكان ذلك بموافقة الصحابة رضوان الله عليهم .

ولكن القرآن جاء بخلاف ما حدث من تصرف فى شأن الأسرى ، فقال القرآن : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عَرَضَ الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم » .

وتجلت الرحمة من النبي فى أعقاب غزوة بدر ، فرفض أن يكون هناك تشفٍ أو تمثيل . ولقد جاء أحد الصحابة يسأل

النبي أن يأذن له فى نزع ثنيتى سهيل بن عمرو ـ أحد الأسرى ـ حتى لا يقوم خطيبا ضد النبي كما كان يفعل ، فرفض النبي ذلك وقال : لا أمثِّل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا ! .

* * *

ونلحظ فى غزوة بدر كثيرا من الدروس العسكرية المفيدة ، فهناك درس محاولة القضاء على القوة الاقتصادية المشركة ، لأن ذلك يؤثر أبلغ التأثير فى الناحية العسكرية ؛ وهناك درس الشورى ، وهى هامة وضرورية فى الحروب ، فرأينا الشورى قبل القتال ، والشورى فى أثنائه ، والشورى فى أمر الأسرى ؛ وهناك درس الاستطلاع والاستكشاف ، إذ رأينا أن هذا يفيد فى تكييف المعركة وتدبير أمورها ؛ وهناك درس السرية فى التحركات والعمليات ، فإن تجميع الماء قد قام به المسلمون ليلا حتى لا يحس به المشركون ، كما أمرهم النبي أثناء القتال أن يلتزموا الصمت ، حتى يدنو أعداؤهم منهم ، فيفاجئوهم بالضرب عندئذ .

وهناك درس العدالة والتعميم فى توزيع الغنائم ، ورعاية الشهيد فى أسرته بإعطائها حقه من الغنيمة لو كان حياً .

وهناك درس الإنسانية فى الحرب ، فالرسول لم يقبل مبدأ

التمثيل بالعدو ، وعفا عن العاجزين الذين لم يُفْسدوا ، بل وجمع القتلى من المشركين ودفنهم .

ولن نستطيع أن نحصى الدروس الكثيرة التى تضمنتها غزوة بدر ، فالمجال محدود ، وفيض الغزوة غزير عميق ، فحسبنا أن نقول إنها كانت فتحاً مبينا ونصراً عظيما ، وبداية مباركة لسلسلة من الفوز والنجاح ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

يوم الفطر

في يوم عيد الفطر المبارك نحتفل بما نستطيع من مظاهر الفرح والاغتباط والتهنئة ، ومن حقنا أن نسر بذلك اليوم وأن نفرح ، إذ أمرنا الله مولانا عز وجل بالصوم فاستجبنا وصمنا ، وندبنا إلى قيام الليل فانتدبنا (أى استجبنا) وقمنا ، وحثنا على زكاة الفطر التى ترفع الصوم إلى محل القبول فسارعنا وأدينا .

ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يختصنا الله بيوم يحل لنا فيه ما حرم علينا بالأمس ، ويبيح لنا من لذائذ الحياة الطيبة ومشتهياتها المعقولة ما كنا تنظر إليه طيلة الشهر الماضى ، ونستطيع أن نمد إليه أيدينا فى الخفاء أو العلن ، ومع ذلك كان هناك ما يمنعنا منه ويصدنا عنه ، كان هناك صوت فى النفوس ينهانا ، كانت من فوقنا عين الله العليم الخبير ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والذى نرجو رحمته ونخشى عذابه ، ونتقرب إليه بالصوم كى يجعلنا من عباده الصالحين ، ويحشرنا فى زمرة الأتقياء المقربين ، بفضله وكرمه ، وله الحمد فى الأولى والآخرة .

لقد مَنَّ الله علينا بالتوفيق فى الصوم ، ثم أعقبه بذلك الفضل فى العيد ، فما أجدرنا بأن نشكره ونثنى عليه الخير كله ، وبأن نعاهده معاهدة الأخيار الأبرار الأحرار على الاستقامة مع دينه ، والاحتماء بظل كتابه ، والاقتداء بهدى رسوله صلى الله عليه وسلم ، والعمل الدائب لوجهه الكريم الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح به أمر الدنيا والآخرة ، حتى يصدق علينا قوله عز من قائل : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم » .

إن من حقكم أيها الصائمون — وقد أديتم واجبكم ، وفزتم فى معركتكم ضد الأهواء والشهوات خلال رمضان المبارك وانتصرتم على أنفسكم الأمارة بالسوء ، وقويتم إرادتكم ، وأيقظتم الجوانب الربانية المضيئة فى صدوركم ، وأقبلتم على حمى ربكم — أن تُظهروا الزينة ، وتبدوا التجمل ، وتلهوا فى العيد لهوا طيبا ليس بخبيث ولا بحرام ، وتوسعوا على أنفسكم وأهليكم نوعا ما فى الطعام والشراب والثياب ، بلا إسراف

أو تبذير أو مخيلة : «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً » .

نعم ، لكم هذا يا أبناء الإسلام وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام ،وعليكم بجواره أن تظهروا عظمة الإسلام وقوة أهله وصفاء طبيعته فى يوم العيد وفيما بعده ، فلا تقترفوا منكراً ولا تأتوا إثما ، ولاتشهدوا فجوراً ،ولا تمشوا فى الأرض مرحا، ولا تظهروا ترفا زائدا أو فجوراً مبيناً ، وإذا ما سلكتم فجاج الأرض متنقلين هنا وهناك ، فاصطحبوا معكم ضمائركم وعقولكم وإيمانكم ، واذكروا أن سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب إلى المسجد يوم العيد من طريق ، ويعود من طريق آخر ، فقال العلماء — كما روى فى زاد المعاد — إنما فعل ذلك ليسلم على أهل الطريقين ، أو لينال الفريقان بركته، أو ليقضى حاجة من له حاجة منهما ، أو ليظهر شعائر الإسلام فى سائر الفجاج والطرق ، أو ليغيظ المنافقين برؤيتهم عزة الإسلام وأهله وقيام شعائره ، أو لتكثر شهادة البقاع له ، فإن الذاهب إلى المسجد إحدى خطوتيه ترفعه درجة ، والأخرى تحط عنه خطيئة . . .

فها نحن أولاء نرى أن القصد من السير والتنقل كان كريما

موصول الأسباب برضا الله عز وجل ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يمش فى الأرض مرحا ، ولم يسلك السبل المتعددة ليزهو أو يتكبر ، بل فعل ذلك ليأتى معروفاً ، ويتقرب من الله درجات فوق درجات ، فعلى أتباعه المحبين له المخلصين لدينه ودعوته أن يهتدوا بسنته ، وأن يذكروا كلمة الصدّيقة بنت الصدّيق عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : «ما تمتع الأشرار بشىء إلا تمتع به الأخيار وزادوا عليه تقوى الله» ! .

والمسلمون القادرون يعرفون ما يعانيه الفقراء والمعوزون فى يوم العيد من ضيق ذات اليد ، وضيق ذات النفس ، فعلى هؤلاء القادرين أن يكونوا سماحا كرماء ، يمدون أيديهم بالإحسان للفقير والمسكين والمحتاج ، ويمسحون بأيديهم الناعمة دموعَ أولئك الحيارى من البائسين الأشقياء ، حتى تكون الفرحة فى يوم العيد جامعة شاملة ، فتسرى فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم تلك الأضواء العلوية التى تغمرهم برضا الله ونعمائه ، وما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط .

وليس من الإيمان أن يمتلئ المسلم ويرفل فى الجديد ، وإلى جانبه ساغب أو عريان ، ولقد صور أحد الأدباء ما يكون بين أطفال الناس من تفاوت فى العيد ، وما ينبغى من تعاونهم على

الخير واشتراكهم فى السراء ، فهو يقول : « لا تأتى ليلة العيد حتى يطلع فى سمائها نجمان مختلفان : نجم سعود ونجم نحوس ، أما الأول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأردية والحلل ، ولأولادهم اللعب والتماثيل ، ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب ، ثم ناموا ليلتهم نوما هادئا مطمئنا تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرتهم تطاير الحمائم البيضاء حول المروج الخضراء ، وأما الآخر فللأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضى ، يئنون فى فراشهم أنينا يتصدع له القلب ، ويذوب له الصخر ، حزناً على أولادهم الواقفين بين أيديهم ، يسألونهم بألسنتهم وأعينهم : ماذا أعدوا لهم فى هذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادهم ، ولعب جميلة يزينون بها مناضدهم ، فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها . . .

فهل لأولئك السعداء أن يمدوا إلى أولئك الأشقياء يد البر والمعروف ، ويفيضوا عليهم فى ذلك اليوم السعيد النزر القليل ممـا أعطاهم الله ؟ . . . إن رجلا يؤمن بالله ورسوله وآياته وكتبه ، ويحمل بين جنبيه قلبا يخفق بالرحمة والحنان ، لا يستطيع أن يملك عينيه من البكاء ، ولا قلبه من الخفقان ، عندما يرى فى يوم العيـد — فى طريقه إلى مسجده ،

أو منصرفه من زيارته — طفلة مسكينة بالية الثوب كاسفة البال دامعة العين ، تحاول أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلا من أترابها وصواحبها أن تقع أنظارهن على بؤسهم وفقرها ورثاثة ثوبها ، وفراغ يدها من مثل ما تمتلئ به أيديهن ، فلا يجد بدا من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها وعلى بؤسها ومتربتها ، لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازى ذرة واحدة من السعادة التى يشعر بها فى أعماق قلبه ، عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة فى عينيها !! . . . حسب البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع أيامهم فى سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة فى كل عام مرة أو مرتين » .

وما لنا نذهب فى التماس العظة بعيدا . . . إن فى الإسلام من العظات والعبر فى هذا الباب ما يبلغ القلوب فيصلها بنور الله عز وجل ، ويهديها سواء السبيل . .

فهذه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها كانت تأتيها الأموال والخيرات من هنا وهناك ، فتأخذ فى توزيعها حتى تنتهى منها وإنها لجائعة ، فلا تفكر فى أن تبقى لنفسها

ما يذهب بجوعها . . وقد تكون محتاجة إلى ثوب ، وقد يكون بين يديها أثواب ، فلا تدخر احدها لنفسها ! ! .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقف يوم العيد ، فيخطب فى القوم حاثا لهم على التقوى والإحسان ، ثم ينتهى إلى النساء ، وفى صحبته بلال مؤذن السماء ، فيأمرهن بالصدقة وتقديم الخير ، ويبسط بلال رداءه ، ليتلقى فيه مايجود به هؤلاء النساء ، فتلقى هذه بقرطها ، وتلك بخاتمها ، وتلك بمالها ، حتى يكاد يمتلىء ثوب بلال من هذه الحلى التى قدمتها خالصة لله ورسوله ! ! .

فلا تكونوا يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام أقل همة ، وسارعوا بإحسانكم وطيباتكم إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، وتذكروا ما رواه جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيها الناس ، توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا ، وصِلُوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة

ذكركم له ، وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ، تُرْزقوا وتُنصروا وتُجبروا ! ! » .

هيأ الله لأبناء الأسلام من أمرهم رشدا ، ودفع بهم إلى مواطن الخير والبر ، وأعاد عليهم مواسم الطاعات والقربات وهم آخذون منها بأوفر حظ وأكرم نصيب ، وكتب لهم التوفيق فى أمرى الدين والدنيا ، إنه خير مستعان ! ! . .

أيام فى ضيافة الرحمن

الحج فريضة إسلامية ، بها تتم الفروض ويكمل الدين ، وهو دعوة من الله إلى عباده ، يدعوهم فيها إلى رحابه ، ويستقدمهم بها إلى جنابه ، ويستضيفهم حول بيته ، لتشملهم فيوض رحمته ، وتعمهم سحائب مغفرته ، ويتصلوا حسياً — بعد اتصالهم روحياً — بمنزل الوحى ، ومهبط السفير جبريل .

ومن عجيب صنع الله أنه قد جعل بيته هذا مثابة للناس وأمناً وحرماً مقدساً طهورا ، تنسى عنده الأحقاد والأضغان ، ويعم السلام والأمان ، ولكنه لم يجعل هذا البيت فى ضخامة القصر الشاهق ، أو الصرح الباسق ، أو الطود السامق ، بل جعله فى مظهره محدوداً متواضعا ، ومع هذا ضمَّ فى تواضعه الجلالَ والعظمة ، فأفئدة الناس تهوى إليه من كل فج عميق ، ورحالهم تشد نحوه من كل ركن سحيق ، وحول هذا البيت العتيق تتجمع القلوب كما تتجمع الجنوب ، وتتحد المشاعر كلها فى مناجاة رب البيت سبحانه ، وتنحدر دموع الخوف والاستكانة ،

من عين الأمير المهيب ، كما تنحدر من عين الخادم الفقير .

ومن هذه الدموع المتحدرة حول هذه الأحجار الكريمة العتيقة ، مع تلك الدعوات الهامسة تترجم عن آمال أصحابها ، تتكون أروع صورة لخضوع العباد أمام سلطان المعبود جل جلاله ، ولقد روى أن عمر قبّل الحجر الأسود وقال : والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك . . . ثم بكى وعلا نشيجه ، والتفت وراءه فرأى علياً ، فقال له : يا أبا الحسن ها هنا تسكب العبرات ، وتستجاب الدعوات ؟ .

والحج رحلة تباركها يد الله حينما يتوافر فيها إخلاصُ النية وصدق التوبة ، وتمحيص الإنابة ، وما من موقف يتجلى فيه التقاء أبناء الإسلام على العبادة والتعاون والاتجاه إلى البارئ الخلاق ، كما يتجلى ذلك فى موسم الحج الأكبر ، الذى تتلاقى فيه الأشباح ، وتمتزج الأرواح ، وتتوحد المشاعر ، ويعلو الهتاف الإسلامى المزلزل بصدقه وعمقه ، وكثرة مردديه : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

وإن هذا المظهر الإسلامى الرائع بصورته وفكرته ، الجليل فى مبناه ومعناه ، ليجب أن يجدد على الدوام ما قد يبلى

من روابط الأخوة بين المسلمين ، ويبعث الهيبة منهم فى قلوب الكافرين ، ويذكِّر الغافلين بأن الأرض لا تزال معمورة بكلمة الإسلام وجنود الإيمان ، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين حتى تقوم الساعة » .

ولقد أراد أحد الأتقياء الدعاة أن يصوِّر غيظَ الشيطان اللعين بما يراه من جموع الحجيج ، مقبلين على ربهم ، ملبين من قلوبهم . فقال : إن الشيطان تراءى له فى صورة شخص باكى العين ، ناحل الجسم ، أصفر اللون ، مقصوف الظهر ، فقال له التقى : ما الذى يبكيك ؟ . قال الشيطان : خروج الحجيج إلى الله بلا تجارة ، أقول : قد قصدوه ، وأخاف ألا يخيِّبهم ، فيحزننى ذلك . قال : فما الذى أنحل جسمك ؟ . قال الشيطان : صهيل الخيل فى سبيل الله — عز وجل — ولو كانت فى سبيلى كان أحبَّ إلى . قال : فما الذى غيَّر لونك ؟ . قال : تعاون الجماعة على الطاعة ، ولو تعاونوا على المعصية كان أحبَّ إلىَّ . قال : فما الذى قصف ظهرك ؟ . قال : قول العبد لربه : أسألك حسنَ الخاتمة ، أقول : يا ويلتى متى يُعجب هذا بعمله ؟ أخاف أن يكون قد فَطِنَ ! .

والحج فريضة لها آدابها ولوازمها ، وبدونها لا تؤتى ثمراتها ولا تظهر مغانمها ، فالحج يتطلب أولا من قاصده أن يفهم ما يراد منه ، فيجب أن يدرس المسلم الحج وأركانه وكيفيته وغايته ومقاصده الدينية والاجتماعية ، وأن توجد عنده بعد هذا الدرس رغبةٌ وشوق ، لا أن يتحرك إلى الحج تحركا آليا ، فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى .

ثم عليه بعد ذلك أن يعزم على الأداء ، ويستعد لمفارقة الأحباء ، وتحمل المشقات والأعباء ، ثم يوثق علائقه بالخالق ، بعد أن يوئس نفسه من الخلائق ، وبعد أن يتوب توبةً نصوحا ، ويرد المظالم والأمانات إلى أهلها إن كانت ، ويقضى ما عليه من ديون ، ويستوفى ما يلزمه من نفقة ، ويحسن اختيار الرفقة .

وحينئذ يدخل المسلم فى عالم جديد ، فكأنما قد خُلِق خلقا آخر ، فإذا تم له الحج وهو على تلك الحال فقد سلك نفسه فى عداد الثابتين على العهد ، الحافظين للوعد ، الراعين للأمانات ، وقد يكون هذا مما يشير إليه حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » .

وعلى الراغب فى أداء فريضة الحج أن يؤيد ما يعمر قلبَه

وجنانه من عواطف الخير والتقوى ، بما يردده لسانُه من كلمات البر والهدى ، وعبارات الرجاء والدعاء ، كأن يقول مثلا وهو يبدأ سفره :

« اللهم أنت الصاحب فى السفر ، وأنت الخليفة فى الأهل والمال ، والولد والأصحاب ، اللهم احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة ، اللهم إنا نسألك فى مسيرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم إنا نسألك أن تطوى لنا الأرض ، وتهون علينا السفر ، وأن ترزقنا سلامة البدن والدين والمال ، وتبلغنا حج بيتك ، وزيارة قبر نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل والمال ، والولد والأصحاب ، اللهم اجعلنا وإياهم فى جوارك ، ولا تسلبنا وإياهم نعمتك ، ولا تغير ما بنا وبهم من عافيتك ، يا أرحم الراحمين » .

وليذكر الحاج دائماً وهو فى البلد الحرام أنه يتقلب فى بلد شهد مولد الرسول ومولد دعوته ، وفيه أول بيت وضع للناس ، وحماه أول بقعة يشيع فيها الأمان ، وتلوح أنوار الإيمان ، وتختفى نوازغ الشيطان ، حتى لقد ذهب بعض الأئمة إلى أن الإنسان يؤاخذ ويعاقب بنيته إذا كانت سوءاً وهو بمكة .

فعن ابن مسعود قال : ما من بلد يؤاخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلا مكة ، وتلا قوله تعالى : « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » . فليكن المسلم هناك صورة كريمة لحسن الفعال وحميد الخصال وجميل المقال ، ولم لا يفعل ذلك وهو فى ضيافة الرحمن ، وعلى مقربة من مستقر حبيبه الأول محمد صلوات الله وسلامه عليه الذى قال : « من جاءنى زائرا لا تهمه إلا زيارتى كان حقا على الله أن أكون له شفيعا » ؟ . . .
ولم لا وبقرب مكة توجد المدينة التى تضم رفات الرسول ، والتى يفوح منها شذا الذكريات ، وسير البطولات ، وأريج النفحات ، حتى ليتمنى عمر فى أخريات أيامه أن يسعد بالموت فيها فيناجى ربه قائلا : « اللهم كبرت سنى ، وضعفت قوتى ، وقلت حيلتى وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى إليك غير مضيّع ولا مفرّط ، اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك عليه الصلاة والسلام » .

ولا عجب ففى الحديث الحسن الصحيح : « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت ، فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت شفيعا له يوم القيامة » :

أما بعد فيا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ليحذر كل منكم أن يشغله فى أثناء حجه عن ربه شاغل ، وإلا حبط الأجر ، أو نقص القدر ، ولقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال : « إذا كان فى آخر الزمان خرج النـاس للحج أربعة أصناف : تحج أغنياء أمتى للنزهة ، وأوساطهم للتجارة ، وفقراؤهم للمسألة ، وقراؤهم للسمعة » . فاحذروا أن تكونوا أحد هؤلاء ، وثقوا أنكم إذا قصدتم بالحج تقوية للبـدن ، وتجديدا للخُـلق ، وتمحيصا للذنوب ، وإخلاصا فى التوبة ، وتعاونا على البر والتقوى ، وتشاورا فى الصلاح والإصلاح ، وتلاقيا على الأخوة فى الله ، فقد حققتم الأمل ، وأتممتم العمل : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » .

أيام المؤتمر الأكبر

بعث الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ليكشف عن الناس الغُمة ، ويقضى على الظُلْمة ، ويجمع شتات الأمة ، ويوحد ما تفرق من الكلمة ، فكان الإسلام الحنيف دينَ الجماعة والاجتماع ، وملةَ الوفاق والاتحاد ، وقد شرع الله لتحقيق هذه الوحدة أموراً كثيرة من أمور الدين .

ولعل أقربها إلى الأذهان ، وأكثرها تكراراً على الأيام ما شرع الله عز وجل من أمر الصلاة ، فهذه صلاة « الجماعة » المقامة كل يوم خمس مرات ، تجمع أبناء الحى من أحياء البلد فى مسجدهم ، يتلاقون على الطهارة والطاعة ، ومناجاة الخالق جل جلاله ، فيزدادون هداية وتعارفاً وتآلفاً .

وهذه صلاة « الجمعة » يوم الجمعة ، ينادى المنادى إليها ، فيسعى أبناء البلدة كلها إلى مسجدهم الجامع ، يلبون نداءَ الله ، ويستجيبون لذكر الله ، ويلتقون فى ساحة المسجد الواسع مجددين الحمد لله ، والشكر على نعمائه ، ومؤكدين أخوتهم فى الله ، ومحققين قول ربهم تبارك وتعالى : « ياأيها الذين آمنوا

إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إلى كنتم تعلمون ، فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » ، وقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » . وقول رسوله الكريم عليه الصلاة والتسليم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقوله : « يد الله مع الجماعة » .

وفى يوم عيد الفطر ، يجتمع أبناء كل بلد إسلامى عقب شروق الشمس ، ذاكرين فضل الله عليهم ، أن وفقهم فى صيامهم وقيامهم ، وتقبل منهم عبادتهم وزكاتهم ، وأتم عليهم فضله ونعمته ، فهم يهللون ويكبرون ، وهم يركعون ويسجدون ، وهم يستمعون القول الطيب فيخشعون ويستجيبون ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم .

* * *

ثم يأتى الاجتماع الأعظم ، والمؤتمر الأكبر ، واللقاء الأنور . . . يأتى مؤتمر الحج المبارك الذى يجمع أبناء الإسلام من مشارق الأرض ومغاربها ، ومن دانى الأماكن وقاصيها ،

والذى يستجيب له المؤمنون من شتى فجاج الأرض ، فيسعى إليه الأبيض والأسود ، والأحمر والأصفر ، وكل قادر على الحج مستطيع له ، ويسعى إليه كل منهم وهو فرح سعيد ، يغبطه غيره على ما نال من حظ وتوفيق .

ولا غرو فهو يخرج إلى نداء الله ، وإلى ضيافة الرحمن الرحيم ، وإلى ساحة الرضوان ، وإلى منزل الوحى ، ومهبط سفير الرحمن جبريل عليه السلام ، وإلى البيت الأول الذى باركه الله وطهره وشرفه : « إن أول بيت وُضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

ولم لا يكون السعى عاماً شاملاً كل مستطيع وقادر ، والله قد كلف أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام منذ القدم بأن يؤذّن فى الناس داعياً إلى زيارة بيته والطواف حوله : « وإذ بوأنا لإبراهيم مكانَ البيت أن لا تشرك بى شيئاً ، وطهّر بيتى للطائفين والقائمين والركّع السجود ، وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر(١) يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ،

(١) بعير مهزول من بعد المسافة ، والفج العميق : الطريق البعيد .

ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام[1] ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم[2] وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ، ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله[3] غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ».

* * *

ويلتقى أبناء الإسلام كل عام فى هذا المؤتمر الإسلامى العالمى الجليل ، فيزدادون تعارفاً فوق التعارف ، ويضيفون تآلفا إلى التآلف ، ويزكون أنفسهم ، ويطهرون قلوبهم ، ويستغفرون ربهم ، ويتدارسون أمورهم وشئونهم ، ويتعاهدون على الحق والصدق ، وعلى التعاون فى ميادين الخير والبر ، وعلى نصرة الإسلام والمسلمين ، ومناهضة أعداء الملة والدين ، والوقوف صفاً واحداً

---

(١) بهيمة الأنعام . الإبل والبقر والغنم .
(٢) ليقضوا تفثهم : يزيلوا أدرانهم وأوساخهم .
(٣) حنفاء لله : مائلين عن الباطل إلى الدين الحق .

فى وجه من يريد بهم شراً ، أو يضمر لهم كيداً ، أو يغتصب منهم حقاً ، حتى يكونوا فى ديارهم وأوطانهم ، — كما خلقهم ربهم ، وكما أراد لهم — كراماً أحراراً ، أعزة أخياراً، تقاة أبراراً[1] « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ، « وإن جندنا لهم الغالبون » ! .

هناك يلتقون فى خير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، يلتقون فى مكة المكرمة : البلد الحرام الطيب ، الذى أعزه الله وكرمه ، ورفعه وعظمه ، وصانه وحرمه ، وحول البيت العتيق الحرام ، حول الكعبة التى شرفها الله أعظم تشريف فجعلها مثابة للناس وأمنا ، يفيئون نحوها ، ويتجمعون إلى جوارها ، ويعبدونه سبحانه متجهين إليها ، ويركعون له ويسجدون لجلاله من حولها ، « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

ومن بعد فرائض الحج يتجهون إلى دار الرسول عليه الصلاة

(١) المراد هنا تصوير مايجب أن يكون عليه المسلمون فى الحج دائماً .

والسلام : إلى المدينة المنورة ، البلدة التى آوت المسلمين ، ونصرت الإسلام ، وآثرت على نفسها فى سبيل الله : « والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

هناك فى الحج يلتقون على ميعاد ، وعلى تطهر ومتاب ، فى خشوع وخضوع ، فلا جدال ولا خصام ، بل عبادة وسلام : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب » !..

هناك يلتقون من كل فج عميق ، دينهم الإسلام ، وشعارهم التوحيد ، فإلهم واحد ، ونبيهم واحد ، وكتابهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وأمتهم واحدة ، وغايتهم واحدة ، نشيدهم المردَّد المكرر هذا النداء : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، لبيك والرغبة والعمل إليك ! . . .

وإذا استلموا البيت الحرام قالوا كما قال رسولهم من قبل : باسم الله والله أكبر ، إيمانا بالله ، وتصديقا لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم إنى أعوذ بك من الشك والشرك ، والنفاق والشقاق ، وسوء الأخلاق . . . وإذا كانوا بين الركن اليمانى والحِجْر قالوا كما قال نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام : اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ! ! . . .

وهكذا يواصل أبناء الإسلام — أو يجب أن يواصلوا — ما شرع الله من أعمال الحج فى المشاعر الحرام ، وهم يمتلئون هيبة وإنابة ، حتى يتموا حجهم المبرور ، فيعودوا أطهاراً كيوم ولدتهم أمهاتهم ، ويثقوا بثواب الله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ! . . .

* * *

ومن الواضح فى الإسلام أن الله تعالى جعل لعباده فى أيامه أعياداً ومواسم ، يتذكرون فيها نعماءه ، ويشكرون آلاءه . ويحمدونه أثناءها على توفيقه لهم فى ميادين الطاعة والعمل الصالح ، والصفة الغالبة على هذه الأعياد والمواسم هى أن الحق تبارك وتعالى قد جعلها مناسبات لتجميع الأمة ،

وتأليف قلوبها ، وتوحيدها فى عقيدتها وطريقتها ، وحركاتها وسكناتها ، والتسامى بها نحو الوحدة الإسلامية التى يريد الله لعباده وأوليائه أن تكون متحققة فيهم على الدوام : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

وأكبر عيد يجب أن تبدو فيه الأمة المؤمنة مجتمعة متلاقية هو عيد الحج الأكبر الذى يمثل المؤتمر الإسلامى الأعظم . حيث تخرج الألوف بعد الألوف من مشارق الأرض ومغاربها ساعين إلى ربهم ، ليشهدوا منافع لهم ، وليذكروا اسم الله فى أيام معدودات ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق .

وقد شرع الله الحج ليكون رحلة خالصة مخلصة لوجهه وفى سبيله ، تتوافر فيها رياضة الحس والوجدان ، والتجرد من زينة الحياة ، والإقبال على طاعة الرحمن ، ولذلك كان فى الحج انتقال وارتحال ، وإعداد للزاد ، واحتمال لمشاق السفر وتغير الأجواء ، وتجرد من متاع الحياة حتى فى الثياب ، وإقبال على الله بالحس والنفس ، والعمل والقول ، والذكر والفكر ، فشعار المسلم منذ إحرامه هو نداؤه ودعاؤه . « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

ولذلك كان من أول ما يلزم للحج النية الطاهرة الصادقة ، التى يعزم فيها المسلم على الرحيل إلى ربه بنفس مؤمنة ، وذات تائبة ، وهمة معرضة عن الشهوات والملذات ، مقبلة على الطاعات والقربات ، لأنه سيحل ضيفاً على ربه عز وجل حول بيته الذى جعله الله مباركا وهدى للعالمين ، وبيت الله يحتاج فى زيارته إلى طهارة المظهر والمخبر .

وقد روى الإمام القرطبي عن حذيفة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله أوحى إلى : يا أخا المنذرين ، يا أخا المرسلين ، أنذر قومك ألا يدخلوا بيتاً من بيوتى إلا بقلوب سليمة ، وألسنة صادقة ، وأيد نقية ، وفروج طاهرة ، وألا يدخلوا بيتاً من بيوتى مادام لأحد عندهم مظلمة ، فإنى ألعنه ما دام قائماً بين يدى حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويكون من أوليائى وأصفيائى ، ويكون جارى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » .

وإذا كان هذا يقال فى حق أى بيت من بيوت الله ، فكيف بالبيت الحرام الذى يقول فيه بديع السموات والأرض « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام إبراهيم

مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » ويقول فيه : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ، ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » .

* * *

كما شرع الله الحج ليعلم عباده كيف يترفعون عن الأحقاد والأضغان ، ويتناسون الشحناء ، ويزهقون روح الخصومة والمعاداة ، ولذلك جعل الله موسم الحج فرصة للإخاء والصفاء ، والتنزه عن الخلاف والاعتساف ، حتى فى الكلام والحوار ، والتطهر من كل أسباب التمرد والانحراف ، ولذلك يقول الله تعالى وهو أصدق القائلين : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب» .

وموسم الحج موسم أمان وسلام ، يأمن فيه كل فرد على نفسه ومتاعه ، وكلما تطلع المسلم إلى البيت الكريم قال كما كان يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « اللهم أنت السلام ، ومنك

السلام ، فحيِّنا ربنا بالسلام » . بل إن الحمام نفسه -- وهو طائر ضعيف رقيق — يأمن على نفسه ، فهو يطير هنا وهناك ، وينتقل من مكان إلى مكان ، لا يخشى أذى أو عدواناً ، وكيف يخشى ذلك وهو فى الحرم ، وحول البيت الحرام ، وفى البلد الحرام ، وفى الموسم الحرام ، حيث لا يكون اعتداء أو انتقام؟.

وهذا رسول الله صلوات الله عليه وسلامه يقول عن مكة يوم الفتح : « إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة ، لا يُعضد شوكه (أى لا يُقطع) ولا يُنَفَّر صيده ، ولا تُلقط لقطته إلا من عرّفها ، ولا يختلى خلاها » ، أى لا يقطع نباتُها الرطب الرقيق ما دام رطباً — يعنى مكة . .

وهؤلاء هم ضيوف الله حول بيته كأنهم فى صلاة ممتدة الأجل طويلة الأمد ، فهم يتحركون ويذهبون ويجيئون ، وذكر الله هو الشغل الشاغل لهم ، وتصفية قلوبهم هو الأمر المسيطر عليهم ، وتطهير نفوسهم هو المقصد الأسمى من رحلتهم ، حتى يتحقق فيهم ومنهم الحج المبرور الذى يجعل المرء وكأنه قد وُلد

من جديد ، مصداقاً لقول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : « ليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة » .

ولعل هذا لا يبعد عن مجال الحكمة فى أن يطوف المسلم حول الكعبة طاهراً متوضئاً كأنه فى الصلاة ، وقد جاء فى الحديث : « الطواف بالبيت مثل الصلاة ، إلا أنكم تتكلمون فيه ، فمن تكلم فيه فلا يتكلم فيه إلا بخير » .

* * *

ألا ما أجملها من رحلة ، وما أكرمها من ضيافة ، وما أعظمها من نعمة ، وما أجمله من فوز مبين ! ! . . يذهب المسلم الصادق إلى الحج فإذا وفقه مولاه جل علاه لتأدية الفريضة على الوجه الأكمل وصل إلى جملة أغراض وعدة مقاصد : إنه يسهم أولا بشخصه — مع إخوانه فى الله — فى تطبيق الوحدة الإسلامية على أوسع نطاق مستطاع ، وهو يزور الأماكن الطيبة المقدسة صاحبة الذكريات الدينية المجيدة والنفحات الإلهية العديدة ، فيكون له من هذه الذكريات نور وضياء ، ومن هذه النفحات غذاء ودواء ، ومن التدبر والتفكر إيقاظ وإحياء ، والذكرى تنفع المؤمنين .

وهو يرى المشاعر الحرام فيزداد لدين الله إجلالا ، وعلى ربه إقبالا ..وهو يرى بعينه كيف انبعث دين الإسلام الهادى من جوف الصحراء ،ومن واد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم، ومع ذلك عمر هذا الإسلام دنيا الناس بالخيرات والبركات ، وزانها بالطيبات والصالحات ، وأخرج من رمال الفيافى ومن جوف الخيام رجالا صاروا فرسان النهار ورهبان الليل ، فعلموا الدنيا كيف تكون القيادة الرشيدة والعبادة المجيدة ، والجهاد من أجل الحق والخير والعدالة والإخاء !.. ومن ذا الذى يأتينى بمثل قومى ؟ . . من ذا الذى يستطيع أن يفاخرنا بأمثال محمد وحزبه ، وآله وصحبه ؟ .. من ذا الذى يستطيع أن يدلنا على قوم كهؤلاء الذين أعزهم ربهم بعزته ، ومجدهم بدعوته ، واختارهم لمرضاته ؟ . .

من ذا الذى يستطيع أن يفاخرنا كفخرنا بقوم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ،، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ! !..

عجزت الدنيا — وحقِّ خالقها — أن تنبت مثلما أنبت الله على يد الإسلام ونبى الإسلام وصحابة رسول الإسلام : « محمد

رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلامن الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » ! ! . . .

يوم عرفات

اليوم التاسع من ذى الحجة هو يوم الوقوف بعرفة ، والوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحج عرفة » أى أن الحج الصحيح هو حج مَنْ أدرك عرفة ، وهذا الوقوف هو الذى يحقق أداء تلك الفريضة الكبرى التى كتبها الله تعالى على عباده ، وطالبهم بها عند القدرة عليها والصلاحية لها .

وفريضة الحج إلى بيت الله الحرام هى دعوة الله وضيافته منذ القدم ، ومنذ استجاب إبراهيم لأمر ربه تعالى بنداء الناس إلى بيته : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق(١) » . والحج فى الإسلام ركن له شأنه ومكانه ، فلقد سئل رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : إيمان بالله ورسوله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : ثم جهاد فى سبيل الله . قيل : ثم ماذا ؟ . قال : ثم حج

---

(١) الضامر : الناقة الهزيلة من كثرة السير . والفج العميق : الطريق البعيد .

مبرور . وقال الرسول : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » . وقال : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » . وقال : « الحجاج والعُمَّار وفد الله ، إن دعوه أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم » . وقال عن الكعبة : « هذا البيت دعامة الإسلام ، فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضمونا على الله ، إن قبضه أن يدخله الجنة ، وإن ردَّه ردَّه بأجر وغنيمة » .

وفى الحج يلتقى المسلمون على ميقات معلوم ، ويأتون المناسكَ فى أيام معدودة ، ليتعودوا الدقة فى العمل ، والنظام فى السلوك ، وهم يتجردون قبل الدخول فى الحج من أعراض الحياة وأغراض الدنيا ، فيتركون زينة الثياب والمال ، ويمسكون عن اللغو واللهو والباطل ، ولا يتكلمون إلا بالخير ؛ ولا يعملون إلا الخير ، لأنهم حريصون على الاستعداد للقاء ربهم بالقلوب السليمة والنيات الخالصة والأعمال الصادقة : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب » .

وإن الإنسان ليتطلع الآن بعين الخيال أو التصور فيرى

الجموع الحاشدة الزاحفة من كل فج ، وقد سعت إلى الجبل المبارك ، إلى عرفات . . . وقد تطهر الحجيج ، ثم استقبلوا القبلة ، وأخذوا فى الدعاء والاستغفار والابتهال ، يرددون ما كان الرسول يردده على عرفات ، وهو قوله : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » . . .

وهناك يجتمع الحجيج الذين كتب لهم ربهم النعمة ، وحفهم بالرحمة ، فوق الجبل الكريم المبارك عرفات . يقفون فوق ساحته طاعةً لأمر ربهم ، واستجابة لنداء رسولهم ، بعد أن زاروا مكة منزل الوحى ، وطافوا بالبيت العتيق الذى يقول فيه ربهم جل جلاله : « إن أول بيت وضع للناس الذى بمكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » . وبعد أن سعوا بين الصفا والمروة : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » .

يقفون فى جلوة الشمس وصحوة الحر يقرعون أبواب السماء بالدعاء ، ويجأرون إلى ربهم بالتكبير والتهليل والابتهال ، يسألونه

أن يغفر ذنوبهم ، ويتقبل متابهم ، ويتم حجهم ، ويردهم سالمين غانمين ، ثم يتذكرون وهم وقوف على الجبل ، من فوقهم السماء ، ومن حولهم الفضاء ، أن رسولهم صلوات الله وسلامه عليه وقف موقفهم هذا منذ مئات السنين ، وخطب فى أتباعه خطبة الوداع التى وعاها الزمان ورددتها الأيام ، وأبطل فيها الوثنية والشرك ، والربا والظلم ، وأنصف فيها النساء والضعفاء ، كما يتذكرون أن يومهم هـذا قد نزل فى مثله على رسولهم قول ربهم تبارك وتعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » .

وهذه الآية نزلت على رسول الله فى يوم عرفة ، وكان يوم جمعة ، وقد قال بعض اليهود لعمر عن هذه الآية : إنكم تقرأون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود أنزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا . قال عمر : وأى آية ؟ قال : «اليوم أكملت لكم دينكم» فقال عمر : إنى والله لأعلم اليوم الذى نزلت فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والساعة التى نزلت فيها ، نزلت يوم عرفة ، فى يوم جمعة .

ونحن نسأل الله أن يوفقنا ، فيربطنا بأسباب يوم عرفة ، وهو ذلك اليوم العظيم الذى قال فيه الرسول : « ما من يوم

أفضل عند الله من يوم عرفة ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا ، فيباهي بأهل الأرض أهل السماء ، فيقول : انظروا إلى عبادي ، جاءوني شُعْثاً غُبْراً ضاحين[1] ، جاءوا من كل فج عميق ، يرجون رحمتي ولم يروا عذابي ، فلم يُرَ يوم أكثر عتيقا من النار من يوم عرفة » . ولقد خطب الرسول في الناس على عرفات قبيل الغروب فقال : « معشر الناس ، أتاني جبريل عليه السلام آنفا ، فأقرأني من ربي السلام ، وقال إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات وأهل المشعر الحرام ، وضمن عنهم التبعات » فقام عمر فقال : يارسول الله ، هـذا لنا خاصة ؟ . قال : هـذا لكم ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة . فقال عمر : كثر خير الله وطاب .

والوقوف على عرفات مشهد فريد له عظته وعبرته ، فكأنه تصوير مصغر ليوم الحشر ، فالناس من كل لون ، والملابس خفيفة لا تعقيد فيها ولا زينة ، والكل قد تركوا الدنيا وراءهم بشواغلها وشهواتها ، وأقبلوا على الله يرجون رحمته ويخافون عذابه ، وكل منهم متلهف غاية التلهف على أن يقبله ربه بين

(١) الشعث : جمع أشعث وهو المتفرق الشعر . والغبر : جمع أغبر وهو من أصابه التراب . والضاحي : الواقف في الشمس .

من رضى عنهم من عباده ، وأن يبعد عنه نقمته وعذابه ، والحر شديد ، والعرق يتصبب ، ومكة بما حولها أو قَربُ منها مشهورة بشدة صيفها وقسوة حرارتها ، وتظل الجموع هكذا حتى تغرب الشمس ، وحتى يختلط بياض النهار بسواد الليل ، فيهبط الناس من فوق الجبل وهم يتخذون من أملهم فى الله وحسن ظنهم به ضياء أى ضياء ، ينير لهم الشعاب والمسالك مهما أظلم الليل أو انتشر السواد . . .

ثم يصلى الحجيج لربهم ، ويرمون بعد ذلك جمراتهم قائلين : الله أكبر ، اللهم اجعله حجا مبرورا وذنبا مغفورا ؛ ثم يذبحون ذبائحهم ، ويحلقون رءوسهم ، ويطوفون بالبيت العتيق الذى جعله الله مثابةً للناس وأمنا ، والذى نصبه للمسلمين رمزا وقبلة ، وشرفه بالإضافة إلى نفسه فقال : « فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

يوم التضحية

ما قيمة الحياة إذا لم يكن للمرء فيها عقيدة يجاهد من أجلها ، ويفرح لانتصاره فى تحقيقها ؟ . وما منفعة العيش إذا لم يكن كفاحاً فيه تعب ونصب ، ثم يتبعه راحة فيها مسرة وهناء ؟ . وما جدوى السير الطويل فى الصحراء الجرداء ، إذا لم يكن فى نهايتها واحة خضراء ، يجد عندها المرء مايتمنى من ظل وفاكهة وماء ! . . . ولهذا نضر الكريم الحليم أيام عباده المؤمنين بالأعياد ، تأتيهم على ميعاد ، فيستريحون فيها ويهدأون ، ويلعبون ويطربون ، ويلبسون ويتزينون ، ويأكلون ويشربون ، ومع كل هذا لم يخلها سبحانه من حكمة بالغة وعظة شافية ، فهذا عيد الأضحية مثلا يقبل علينا بنوره وجماله ، ويبهرنا بروعته وجلاله ، لكنه فوق هذا يعود بألبابنا وخواطرنا إلى الموقف الباقى على الزمن ، الخالد فى التاريخ ، المردَّد على شفتى الأيام ، موقف إبراهيم مع إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، يوم دعاهما داعى الحق تبارك وتعالى إلى التضحية الكبرى ، والبذل الأعظم الذى لا غاية للبذل بعده ، فأصغيا للدعاء ، واستجابا للنداء ، فكان ذلك منهما درساً للأجيال بعد الأجيال ! .

هذا شيخ جليل طاعن فى السن ، هو إبراهيم خليل الرحمن ، جاهد فى سبيل ربه ، واحتمل أذى قومه ، وغاضب أباه وهجره نصرة لدينه ، واحتمل عذاب النار فى سبيل عقيدته وهو لا يدرى أن الله سيجعلها عليه برداً وسلاماً ، ثم تزوج سيدة يرجو منها ولداً تقر به عينه ، فكانت عاقراً عقيماً لا تلد ، واشتد حنينه ورغبته إلى الولد ، فتزوج على الكبر بأخرى ، ويشاء الحكيم العليم أن يبدأ فيض النعمة عليه فيهبه مولودا ذكراً ، وينشئه سليما معافى ، ويجعله من صغره حليماً رشيداً ، ويضعه بين يدى والديه وحيداً فريداً ، فيصب الوالد الشيخ كل رحمته وعنايته وهمته فى ولده الناشئ المترعرع ، ويرى شبابه وحياته تتجدد فى إهاب غلامه ، فيرضى ويقنع ، ويشكر ربه ويخشع ، ويشب الغلام قويا فتياً حتى يكبر ، ويبلغ مع أبيه مبلغ السعى والعمل ، ويستطيع السير والكسب والارتزاق ، وبذلك تتم النعمة على أبيه الهرم ، وهنا يبدأ الاختبار الإلهى والابتلاء الربانى ، فيكون مع إبراهيم فذاً عجيباً ، ولا يختار له موضعاً إلا الفتى المرجى المأمول ، ولا يأتى إلا فى أقسى الصور وأشد الأحوال .. لا يمرض الله إسماعيل ولا يميته ، بل ولا يكتب عليه قتلا أو غرقاً، أو شهادة ، بل يكتب عليه وعلى أبيه أن يُذبح على مرأى من والده،

وبيديه ، وبسكين فيها حز وقطع وضغط ، وفيها إمرار وتكرار . . . وممن ؟ . . من الشيخ العجوز الطاعن فى السن ، الذى ترتعش يده بلا شىء ، فكيف بها فى قتل الوحيد الغالى ...؟ وبأى طريق يطلب منه ذلك ؟ ! ليس بطريقة الوحى المألوف فى وقت اليقظة ، بل بطريق الرؤيا فى المنام ، وحقيقة إن رؤيا الأنبياء وحى وصدق ، ولكن إبراهيم — لو أنه غير إبراهيم - كان يستطيع أن يتأول أو يخرّج ، أو ينتظر قطع الشك باليقين ، ولكنه إبراهيم الخليل ، وابنه هو إسماعيل ذو اليقين ، والآمر هو الله رب العالمين ، الذى له ما أعطى وله ما أخذ ، والذى يجب أن يسمع ويطاع ، وقد كان : « فلما بلغ معه السعى ، قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ، قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

ولكن الله لما رأى منهما صادق الاستسلام ، وحسن الاستعداد للابتلاء ، رحمهما برحمته ، وجنبهما الاكتواء بلهب محنته ، فنجاهما وأكرمهما ، وزاد لهما فى بره وعطفه : « فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم » . . .

ما الذى نستفيده من هذا الموقف الخالد المجيد ؟ . . .
نستفيد أن الحياة فى الحقيقة ملك خالص لله ، يتصرف فيها كيف يشاء ، وأن العبد بين أصابع ربه يقلبه كيفما أراد ، وأن حسن الاستجابة لأوامر الله فيه أمن ونجاة ، وأن الترحيب بالأقدار وعدم الفرار من شديد الاختبار ، يؤدى فى كثير من الأحيان إلى حسن النتائج وكريم العواقب . . .

وإن شمس العيد الأكبر لتطلع على مئات الألوف من المسلمين وقد تجمعوا فى منزل الوحى ومدرج النبوة وموطن الرسول عليه الصلاة والسلام ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ، فهم يعبدون ربهم بقلوبهم الطاهرة ، ويعظمون شعائره بنفوسهم الشاكرة ، ويحمدون فضله ونعمته ، أن وفقهم لحج بيته والاستجابة لدعوته ، فهم يكبرون ويلبون ويضحون ، راجين رحمة ربهم ، خاشين عقابه : « إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا » . وكذلك تطلع شمس هذا اليوم على مئات الملايين من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهم يشاركون إخوتهم الحجاج فى الفرحة الكبرى بنعمة الله والشكر لآلاء الله ، فهم يضحون كما ضحوا ،

وهم يفرحون كما فرحوا ، وهم يلبون كما لبوا : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك لبيك » . وبهذه المشاركة تتجلى الأخوة فى الله ، ويظهر اجتماع المسلمين حول دين الله ، فهم قلب واحد وشعور واحد مهما تعددت الأشباح أو تباعدت الديار ، و « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .و« مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . ولقد كتب أبو الدرداء إلى سلمان يقول : « إن تكن الدار من الدار بعيدة ، فإن الروح من الروح قريب ، وطير السماء على ألفه من الأرض يقع » ! . .

وفى هذا اليوم السعيد المجيد يحسن بنا أن نتذكر قول الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم : « إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر » . يقول الله لنبيه « إنا أعطيناك الكوثر » أى الخير الكثير فى الدين والدنيا ، أعطيناك الإسلام والقرآن والنبوة والرسالة والعلم والذكر الجميل والتوفيق لعبادة الله والوعد بالثواب الجزيل فى الآخرة والحوض المورود والنعيم المقيم فى جنات النعيم ، فاشكر ربك

على هذه النعم ، واعبده لأنه أهل للعبادة دون سواه ، إذ هو الخلاق الوهاب المنان : « فصل لربك وانحر » أى اعبده عبادة القلب والروح التى تتمثل فى الصلاة المقربة من الله ، الواصلة بحماه ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، واعبده عبادة الحس والمادة ، التى يمثلها النحر والتطوع بالأضحية .

ولا تبال يا محمد بأعدائك وشانئيك ومبغضيك « إن شانئك هو الأبتر » ، إن مبغضك ومعاديك هو المقطوع الأثر ، المقطوع الخير ، لن يبقى وراءه خبر ، ولن يمتد له ذكر ، وأما أنت فخيرك باق موصول ، وذكرك دائم مرفوع ، تمر الأجيال بعد الأجيال ، والأذان يتردد فى كل مكان : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله . ومئات الملايين من المسلمين ترطب شفاهها كل يوم مرات ومرات بذكر اسمك، والصلاة عليك ، وتمجيد سيرتك العاطرة ، وإذا كان بعض المجرمين من الكافرين قد قال عنك : إنه أبتر ، لا ولد له ، فإذا مات استرحتم منه . فلا تحزن يا محمد ، فسيبقى الله ذكرك وإن لم يبق أولادك ، وسيقطع ذكر الآخرين من الآثمين وإن كان لهم الكثير من الأولاد ، وربك يفعل مايشاء ويختار ! . .

ومحمد صلوات الله وسلامه عليه هو زعيم هذه الأمة وقائد

تلك الجماعة ؛ فكأن التوجيه أيضاً يشمل أتباعه . وكأن الله تعالى يقول للمسلمين : إن لكم فى رسولكم قدوة حسنة ، وقد أعطاكم الله ما أعطاكم من الصحة والأموال والأولاد والمتاع ، فاشكروا الله على نعمه وآلائه : صلوا له وأخلصوا العبادة لوجهه ، وضحوا له بما تستطيعون ، ولاتحزنوا ولاتضعفوا لأن هناك أعداء لكم ، بل أقبلوا على ربكم ، وهو الذى يعزكم ، ويقهر أعداءكم، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز .

* * *

ويوم العيد يوم ملحوظ فى السنة ، مذكور على الألسنة ، مجموع له الناس ، يتلاقون فيه على فرحة وبهجة ، ويتبادلون فيه تحية وتهنئة ، ويحسون عنده كأنهم قد انتهوا إلى واحة خضراء ممرعة ، بعد أن قطعوا من الطريق شوطا أو مرحلة ، فهم يستريحون ويستجمون ، ويملأون صدورهم بنسمة الاطمئنان ونفَس الرضى ، إذ هو يوم عيد ، والعيد يوحى بالعودة ، فهو يعود فى كل عام ، والثقة بالعودة أمر يجدد فى النفس الأمل ويقوى فيها الرجاء ، وهذه العودة المتكررة من العيد بعد كل مرحلة من مراحل النضال فى مجال العمل الدينى المخلص أو العمل الدنيوى الموفق توحى إلى الإنسان بتكرار المعاودة والمحاولة

لتحقيق ما يؤمن به من أهداف ومبادئ فى هذه الحياة[1] ، وكلما عاود الإنسان عملا ونجح فيه جاء إليه عيد يستريح عنده ويستجم فيه ، ثم يعاود القيام بواجبه ، والسعى فى مسالك الحياة ، للإنتاج والإثمار ، والنفع والانتفاع ، وهكذا دواليك: عيد يقبل بالفرحة والبهجة ، وعودة من الإنسان إلى عمل موفق يعقبه عيد بهيج : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

وهذه المعاودة فى حياة الأفراد والجماعات هى التى تكون

(١) فى الحديث : « من أحال دخل الجنة » أى من تحول من الكفر إلى الإسلام ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن التضييع والإفساد إلى العمل والاستعداد ، دخل الجنة . ولأن مادة « العيد » تدل على العودة والمعاودة سمى العرب رئيس القوم « العود » تشبيهاً له بالجمل المسن الذى عاود الأسفار والارتحال والأعمال مرة بعد مرة ، فهو كامل الدربة والمران ، ويقولون: « هذا فرس مبدئ معيد » أى غزا عليه صاحبه مرة بعد أخرى ، وقيل هو الذى أدبه صاحبه وريضه فهو طوع أمره لا يجمح به ، ويقولون : هذا رجل معيد ، أى حاذق عالم بالأمور . وروى أن النبى قال : « إن الله يحب النكل على النكل . قيل : وما النكل على النكل ؟ قال : الرجل القوى المجرب المبدئ المعيد ، على الفرس القوى المجرب المبدئ المعيد » .

العادة ، والعادة تقارب الطبيعة ، ولذلك يقول الأول :

تعود صالح الأخلاق ، إنى رأيت المرء يألف ما استعادا

وإذا كانت الأعمال التى يأتيها الفرد أو الجماعة طيبة صالحة ، وكان التكرار موصولا دائما ، أدى ذلك إلى تكوين مجموعة من الفضائل يسمو بها الفرد وتعز عن طريقها الجماعة ، وهذه الفضائل التى تعمق جذورها فى النفوس هى ما يسمى بالأخلاق الفاضلة ، وبهذه الأخلاق تعتدل الحياة وتستقيم :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وربما كان العمل الذى يكرره الإنسان ويحاول تعوده عملا عسيرا شاقا فى أول أمره ، ولكنه بالصبر عليه والتطلع إلى غده المأمول يسهل ويلين ، وقد يرحب به صاحبه ويهش له ، والأمم قد يصيبها الذل فى عصور ضعفها وانحلالها ، فتألفه بطول المدة ، ثم تهيء لها الأقدار أن تعرف العزة ، وربما أحست بوطأة التبعات والتكاليف التى تقتضيها هذه العزة ، ولكنها بعد أن تدرك سمو مذاقها وعظيم أثرها ترحب بهذه التبعات والتكاليف ، وربما تطلبت منها المزيد . والمهم هو أن يكون تصرف المرء ومعاودته للمحاولات والأعمال وتكراره لأداء الواجبات ، مصحوبا بالإيمان والثقة فى الله والاعتماد عليه

والاستمداد منه، فالحديث يقول: « لا حول ولا قوة إلا بالله » أى لا توفيق فى الحركة والعمل إلا بمشيئة الله القوى القادر، وفى الحديث : « اللهم بك أصول وبك أحول » أى أتحرك وأحتال لعلاج الأمور، وفى رواية. « بك أصاول وبك أحاول » .

ولقد تعددت أقوال الناس فى تحديد السعادة، ولكن هناك أفرادا منهم يعدون غاية سعادتهم فى أن يوفقهم ربهم للنهوض بما يجب عليهم أن ينهضوا به، فيتعبوا فى ذلك ويعرقوا، ويستنفدوا غاية جهدهم، ثم هم يبلغون هدفهم، ويحققون أملهم، ويقفون عند نهاية الشوط فائزين، وقد تصبب العرق منهم فكان وساما كريما لهم، وحينئذ يحسون بنشوة الظفر ولذة الفوز وسعادة التوفيق لأداء الواجب، وأمثال هؤلاء يلمحون الضوء خلال الظلمات، ويؤمنون بأن من وراء الشدة متعة ونعمة، وأن التعب هو الذى يجعل للراحة طعما ومذاقا، وأن العسر يتلوه اليسر، فتكون له قيمة ومكانة، فهم يفرغون من واجب ليستقبلوا واجبا، وهم ينتهون من مهمة ليستأنفوا القيام بمهمة، يعمر صدورهم الإيمان بالانتصار، وتتألق نفوسهم بعلو الهمة وشرف المقصد ويقين الثقة بالله، وهذا يفسره قول الله تعالى: « فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا فإذا

فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » . وقد روى أنه لما نزلت هذه الآية قال الرسول : « أبشروا ، أتاكم اليسر ، لن يغلب عسر يسرين » . وقال عبد الله بن مسعود : « لو دخل العسر فى جحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه ، لأن الله يقول : فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا » . وقال مجاهد : « يتبع اليسر العسر » .

والعيد يذكرنا - فى لفظه ومعناه — بالعائدة ، والعائدة هى المعروف والإحسان ، تقول العرب : عاد فلان بمعروفه ، إذا أحسن ثم زاد ، ومن صفات الله تبارك وتعالى أنه « المبدئ المعيد » ، أى الذى يبدأ بالفضل ثم يعيده ، ولعل تذكير العيد لنا بالعائدة — وهى المعروف — هو بعض الحكمة فى تشريع الإسلام لزكاة البدن فى عيد الفطر ، حيث يعود المسلم القادر بهذا المقدار من الإحسان على إخوة له فى الله والوطن ، لم تتيسر لهم أسباب السعة فى الرزق أو الاستقرار فى الحياة ، وهو أيضا بعض الحكمة فى تشريع ذبح الضحية فى العيد الكبير — عيد التضحية — حيث يستطيع الفقير أن يتذوق اللحم الذى لا يستطيع تذوقه فى أغلب أيامه .

وحينما يقبل علينا العيد يحسن بنا أن نلقاه ونفرح به وندرك

مذاقه ، ونهيء لغيرنا أن يشاركنا فرحته ، ولكننا بعد هذا يجب أن نعود إلى حسن المحاولة مع عمق الرجاء وقوة الأمل ، وحينئذ يعود علينا العيد بمشيئة الله القوى القادر ليرى أمة مسلمة عاملة مكافحة ، تتعاون على البر والتقوى ، ولا تتعاون على الإثم والعدوان ، لأن الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه ، ويتساوى أبناؤها فى مجال الحقوق والواجبات ، كل يبذل طاقته ، وكل يأخذ حقه وحاجته ، وأساس التقدير والتقديم فيها هو الاستقامة فى مجال العمل ، وتجنب الزلل والخطأ : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . ويرى أمة يتشارك أبناؤها فى الخير والنعمة ، ويتساندون فى البأساء والشدة لأن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

ويرى أمة تتنزه عن الفتنة والفرقة وإشاعة الفاحشة وإثارة الشهوات ، وتستمسك بالحق والجد ومكارم الأخلاق ومحامد الفعال ، حتى تتحقق منها وفيها تلك الأمة الوسط الصالحة المصلحة التى يصفها القرآن بقوله : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . وحين يعود العيد والأمة الإسلامية على هذا الوصف ، يعمر صدورها الإيمان ، وتزدان دنياها بالعمل

الصالح ، وتتواصى بالخير ، وتتناهى عن الإثم ، يحق للأمة أن تفرح بعيدها كل الفرحة ، وأن تبتهج به غاية البهجة ، إذ ستكون الأمة الرابحة الناجحة : « والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ، « قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

إن الله تبارك وتعالى يعود علينا بالآلاء والخيرات فيجب أن نعود إليه بالصالحات والقربات ، وإن الزمان يعود علينا بالربيع الناضر فيجب أن نعود إلى الحياة بالأمل الباسم ، وإن الأرض تعود علينا بالثمار والحصاد فيجب أن نعود إليها بالعناية والرعاية ، وإن الحياة تعطينا فيجب أن نعطيها ، وما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل .

* * *

وما دمنا قد تحدثنا عن عيد الفطر وعيد الأضحى فقد يكون من المناسب أن نتحدث عن آداب الأعياد :

الأعياد أيام معلومة ، تمر على الأمة فتتلقاها لقاء خاصا ، لارتباطها بما تحبه وتجله ، من ذكريات عزيزة ، أو عقائد

كريمة ، فإذا مر بالأمة عيد من هذه الأعياد تحركت عواطفها وانبعثت مشاعرها ، وأحست بهزة تنال عطفيها ، وانتفاضة تشمل حسها ونفسها .

ولأبناء الإسلام أعيادهم ، فهناك عيد أسبوعى متكرر ، وهو يوم الجمعة الذى وردت فيه طائفة كبيرة من الأحاديث والآثار ، وهناك أعياد تأتى فى العام مرة ، فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وجد لهم يومين يلعبون فيهما ، فقال : « إن الله قد أبدلكم يومين خيراً منهما : يوم الفطر ويوم الأضحى » .

وروى عن عقبة بن عامر أن النبي قال : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام ، وهى أيام أكل وشرب » . . .

ومن طبيعة الأعياد أن تتسم بالفرح والسرور ، لأنها تأتى فى أعقاب نصر وفوز ، وتكون خاتمة لمرحلة من مراحل التوفيق فى أمر من أمور الدين أو أمور الدنيا ، ولا عيب على المسلم إذا أخذ حظه من الفرح فى مواطن البهجة ، أو أبدى سروره فى مقامات السرور ، والله عز وجل قد جعل السرور من خير الثواب الذى يلقى به عباده يوم الجزاء : « فوقاهم الله

شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا » . ويقول القرآن : « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ، فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسرورا » .

ولكن الذى يحسن بالإنسان هو أن يكون معتدلا قاصداً فى فرحه وسروره ، فلا يسرف ولا يشتط ، بل يتوسط ويقارب ، لأنه من الأمة الوسط ، وفى القرآن الكريم : « إن الله لا يحب الفرحين » أى الذين يكثرون الفرح بزخارف الدنيا . وليذكر المسلم هنا أن العيد الأصغر وهو عيد الفطر يأتى عقب جهاد هو الصوم ، وما يكاد المسلم يأخذ حظه من الراحة والاستجمام فيه حتى يعود إلى الجهاد الحسى والروحى ، ويستعد لموسم الحج . وعيد الأضحى يأتى عقب رحلة الحج التى يبذل فيها المسلم ما يبذل من جهده وجهاده ، وما يكاد يعود إلى بلده عقب الحج حتى تطل عليه أضواء عام هجرى جديد تدعوه إلى أخذ الأهبة للبدء فى مرحلة جديدة من مراحل العمل لخير الذات ، وخير الجماعة المسلمة ، وخير الناس كلهم .

ومعنى هذا أن المسلم من شأنه أن يعمل ، فإذا استوفى حظه وجهده من العمل وقف وقفة الراحة والاستجمام ، ليأخذ

يصيبه من الهدوء والرضى ، ثم يعاود العمل ، فإذا قطع مرحلة أخذ فترة راحة ، ثم عاود العمل . . . وهكذا . . .

يدأب المسلم على ذلك دون ان يسرف فى عمل فيرهق نفسه أو يزهقها ، ودون أن يسرف فى فرح فيوهن دعائم التماسك والنضال فيها : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » .

ومن الشائع لدى العامة أن الأعياد « فُرص » يعبون فيها من اللهو عبا ، ويشربون خلالها من الأهواء بأوفى المكاييل ، بلا تحرز من حرام ، أو تباعد عن باطل ، أو اتقاء لإثم ، وهذا ضلال فى الاعتقاد ، وانحراف فى الاتجاه ، فما كانت الأعياد فى الإسلام إلا واحة فيحاء يجد المسلم عندها وارف الظل ونمير الماء ورقيق الهواء وطهور المتاع . . .

ومن الجدير بالمسلم أن يحسن التنقل فى الأعياد بين اللهو الطيب والذكر الحميد ، وبين الإقبال على الراحة وعدم الغفلة عن واهب النعم ومصدر الكرم جل جلاله ، وليذكر أتباع محمد عليه الصلاة والسلام أنه قال فى هذا المقام : « من أحيا ليلتى الفطر والأضحى لم يمت قلبه يوم تموت القلوب» . وفى رواية: « من قام ليلتى العيدين محتسباً لم يمت قلبه يوم تموت القلوب » .

وعن الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه أنه قال : « بلغنا أن الدعاء يستجاب فى خمس ليال : أول ليلة فى رجب ، وليلة نصف شعبان ، وليلتى العيد ، وليلة الجمعة »[1].

ونُسب قريب من هذا إلى الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز، فقد ذكر ابن الجوزى فى سيرته أن عمر كتب إلى عامله على البصرة عدى بن أرطاة يقول له : « عليك بأربع ليال من السنة ، فإن الله تعالى يفرغ فيهن الرحمة إفراغاً : أول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة الفطر ، وليلة النحر ».

وقال سهل بن عبد الله التسترى عن هذه الأعياد : « إنها أيام يُرجى فيها الفضل من الله ، فإذا انشغلت فيها بهواك ، ومتعت فيها النفس ، فمتى ترجو الفضل والمزيد » ؟ ! . . .

ولقد خطب الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فى عيد فطر فقال : « أتدرون ما مخرجكم هذا ؟ صمتم ثلاثين يوماً ، وقمتم ثلاثين ليلة ، ثم خرجتم تسألون ربكم أن يتقبل منكم » ! .

ولا شك أن من خرج إلى ربه بعد طاعة عملها يرجو قبوله لها يكون فى خشوع وخضوع، وفى أمل ورجاء ، وأدب ووقار ، حتى لا يرد الله عليه عمله ، وحتى لا يحرمه ثوابه ! . . . وكتب

عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن معاوية بن حصين يقول : إن استطعت أن تحيي ليلة النحر فإنها ليلة العابدين .

وقال الحسن : « كل يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد » .

ومن مأثور القول : « ليس العيد لمن لبس الجديد ، إنما العيد لمن طاعاته تزيد ، ولمن خاف يوم الوعيد ، وليس العيد لمن تجمل باللباس والركوب ، وإنما العيد لمن غفرت له الذنوب » .

وأنشد الشبلى :

عيدى مقيم ، وعيد الناس منصرف
والقلب منى عن اللــذات منحرف
ولى قرينـــان ، مالى منهما خلف
طول الحنين ، وعين دمعها يكف

ومن الشائع كذلك أن الأعياد موعد للإسراف فى ألوان الطعام وكمياته إلى حد التخمة ، مع أن دستور المسلم فى ذلك هو قول الحق تبارك وتعالى :

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .

وهذا هو الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه يعطينا درساً بليغاً عن الاقتصاد فى الطعام ، فقد كان ابن عمه مسلمة بن عبد الملك شرهاً نهماً مسرفاً فى الطعام ، لا يكتفى بلون

أو لونين، بل يجمع الألوان من الأطعمة ، ويكثر منها فى نهم وتوسع ، فأراد عمر أن يعلمه ويقومه ، فدعاه الى بيته مبكراً ، وانتظر عمر حتى جاع مسلمة ، وأراد أن يستأذن فاستبقاه عمر ، وأمر أهل بيته أن يعدوا ثريد عدس وحده ، وأن يعدوا ألواناً شهية أخرى من الطعام . .

فلما امتد الوقت واشتد الجوع بمسلمة أمر عمر بطعام العدس ، فأخذ مسلمة يأكل منه فى رغبة قوية وشهية بادية ، حتى شبع ، ثم أمر عمر بتقديم الألوان الأخرى ، فلم يمد إليها مسلمة يدا ، فقال له عمر : كل . فأجاب : قد شبعت ولم يبق ميل للطعام . . . قال عمر : فلماذا السرف فى الطعام والتقحم فى النار ، وهذا يجزى عنه ؟ . . . فاعتبر مسلمة بذلك ، وأخذ يحمل نفسه على الاقتصاد فى الطعام . . .

ويروى أن عمر بن عبدالعزيز أتى منزله فقال : هل عندكم من طعام ؟ . فأصاب تمرا ، وشرب ماء ، واكتفى بذلك ، وقنع به ، وقال : من أدخله بطنه النارَ فأبعده الله ! . ومن كلام عمر أيضاً : « بؤسا لمن كان بطنه أكبر همه » .

ويروى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه رأى رجلا تكرش بطنه من الإسراف في الطعام وألوانه، فأرادأن ينبهه إلى

سوء ذلك، فقال له معرضاً وقد أشار إلى بطنه بأصبعه : « لو كان هذا فى غير هذا المكان لكان خيرا لك » . وقال الرسول : « ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكول الشروب ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة » .

ومن آداب الأعياد وملامحها الأساسية الإحسان ومعونة الناس ، لأن الأعياد أفراح ومسرات ، وخير مسرة هى التى تعم الجميع ، والرجل الأصيل يميل إلى الانفراد بما يهمه أو يحزنه ، فإذا شملته فرحة أسعده أن يجد الذين حوله يشاركونه فيها، ويقاسمونه بهجتها ومسرتها ، ولذلك كان العيدان الرئيسيان فى الإسلام يومين من أيام التوسعة على الفقراء والمحتاجين ، ففى عيد الفطر يخرج المسلم زكاة الفطر ، وفى عيد الأضحى يضحى المسلم بذبيحة يأكل منها ، ويهدى إلى أحبائه وأصدقائه ، ويحسن منها إلى الذين لا يجدون سعة فى هذا اليوم الكريم .

وليس من آداب الأعياد ولا من المشروع أو المباح فى الإسلام إتيان الفجور ، أو شرب الخمور ، أو الاختلاط الفاحش بين النساء والرجال ، أو بيات النساء فى المقابر ، أو تلك المهازل التى يرتكبون فيها مختلف الآثام والمنكرات ، ويصفونها بأنها احتفال أو ابتهاج بالأعياد ، فتلك أيام مجيدة

مشهودة ، مجموع لها الناس ، فيجب أن تتنزه عما لا يليق بالعقلاء والفضلاء. ولو كانت هذه الأعياد أعيادا للشيطان لجاز أن ينسب إليها هذا الباطل الأثيم والبهتان الشنيع من عدوان على الحرمات، واستخفاف بأوامر الله ، ومجاوزة لحدوده ، ولكنها أعياد الرحمن ،فيجب أن نعف فيها عما حرمه الله ، وعما لا يليق بالأخيار الأطهار من عباد الله : «إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير».

وهذا هو رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهو القدوة الأولى للمسلم : نتتبع هديه فى الأعياد فلا نجد فيه ما يمت إلى هذا الباطل بسبب قريب أو بعيد ، وخلاصة هديه فى العيدين أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يصليهما بعد أن يغتسل لهما ، وكان يلبس للخروج أجمل ثيابه ، وكانت له حلة خاصة يلبسها للعيدين والجمعة ، وفى بعض المرات كان يلبس بردين أخضرين، أو يلبس بردا فيه خطوط حمر كالبرود اليمنية ، وكان يأكل قبل خروجه فى عيد الفطر تمرات ، وفى عيد الأضحى لا يطعم حتى يرجع من المصلى فيأكل من أضحيته ، وكان يؤخر صلاة الفطر ، وذلك ليتمكن من توزيع زكاة الفطر ، ويعجل صلاة الأضحى ، وذلك ليتسع الوقت لذبح الأضحية .

وكان يجمع الصدقات من المسلمين والمسلمات بعد أداء الصلاة وسماع الخطبة، وإذا كان يريد أن يبعث بعثا ذكره لهم.

قال الإمام ابن القيم مانصه: «وكان صلى الله عليه وسلم يخالف الطريق يوم العيد، فيذهب فى طريق ويرجع فى أخرى، فقيل: ليسلم على أهل الطريقين، وقيل: لينال بركته الفريقان وقيل: ليقضى حاجة من له حاجة منهما، وقيل: ليظهر شعائر الإسلام فى سائر الفجاج والطرق، وقيل: ليغيظ المنافقين برؤيتهم عزة الإسلام وأهله وقيام شعائره، وقيل: لتكثر شهادة البقاع، فإن الذاهب إلى المسجد والمصلى إحدى خطوتيه ترفع درجة، والأخرى تحط خطيئة، حتى يرجع إلى منزله، وقيل — وهو الأصح — إنه لذلك كله ولغيره من الحكم التى لا يخلو فعله عنها».

فليكن لنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وقدوة كريمة، ولنجعل أعياد الإسلام بيننا أياما مضيئة بيضاء، تشرق بالبهجة القويمة والمسرة الكريمة، وتزدان بالرضا والرضوان، وتفتح أبواب النشاط والإقدام على مراحل العمل والنضال من أجل حياة إسلامية عالية، أصلها ثابت وفرعها فى السماء!!!.

يوم الأحزاب

« صورة أتخيلها كأنها مشهد سينمائى يجمع بين حقيقة التاريخ وصنعة الفن » :

نرى خالد بن الوليـد وهو واقف على باب قبة السلاح ، بقرب دار الندوة والكعبة ، ونرى الجنود يتقدمون ويتسلمون منه سلاحاً ، ويدور بينه وبين بعضهم حوار نفهم منه أن قريشاً قد اتفقت مع بنى النضير وغطفان واشجع وأسد وسليم وغيرها على مهاجمة الرسول للقضاء عليه ؛ ويعلق شخص بقوله : أو لم تكفه يا خالد ضربتك يوم أحد ؟ . . فيجيبه بأن هذه الضربة لم تردعه ، ولم تصرفه عن دعوته ، فلا زال يبعث سراياه لنشر دعوته ، أو لإظهار تهديده .

فيقول آخر : إذن لا بد من جولة أخرى حاسمة يكون فيها القضاء الأخير . . . فيقول خالد : ويجب أن تكون فى عقر داره نفسها ، فى « المدينة » ، حتى لا تقوم له بعد ذلك قائمة ! .

ونتحول إلى « دار النـدوة » ، فنرى القوم وقد انتهوا من ترتيبهم ، ونسمع أن رياسة الجيش لأبى سفيان بن حرب ،

وأن اللواء بيد عثمان بن طلحة ، وأما خالد فسيكون على رأس الفرسان أصحاب الخيول ، لعله يذيق المسلمين هذه المرةَ كأساً أشد مرارة من كأس « أحد » ، كما نفهم أن جيش قريش سيلتقى خارج مكة ببقية جيوش القبائل التى تآمرت معها على القضاء على محمد . . . ثم ينادى أبو سفيان : فلنتجه إلى الكعبة حتى نلتمس البركة من أصنامنا ومن كبيرها « هُبَل » ! . . .

ونتنقل إلى الكعبة ، فنراها وحولها الأصنام ، ونرى جماعة المشركين وقد ألصقوا أكبادهم بالأصنام ، وأخذوا يطلبون منها النصرَ والمعونة ، حتى يقدموا إليها القرابين عقب عودتهم منتصرين من معركتهم مع محمد ، وحتى يتفرغوا لعبادتها ، فقد شغلهم محمد عن هذه العبادة بفتنة دينه الجديد . . .

ولا مانع أن نرى خالدا وهو يتمسح بأحد هذه الأصنام ، ويقول له : لعل أعظم قربان أقدمه إليك أيها الإله هو أن أحمل لك وأنا راجع رأسَ محمد الصابئ ! . . ثم نرى القوم ينتهون من هذه الطقوس ، وينضمون إلى مقدمة الجيش ، ويبدأون المسير فى اتجاههم نحو المدينة .

ونتنقل إلى عرض الصحراء ، فنشهد من بعيد طائفة من الجيوش مقبلة ، وهى غطفان وقائدها عيينة بن حصن الفزارى ،

وبنو مرة وقائدها الحارث بن عوف ، وبنو سليم وقائدها سفيان بن عبد شمس ، وبنو أشجع وقائدها مسعود بن رخيلة ، وبنو أسد وقائدها طليحة بن خويلد ، ونشاهد كأن هذه الجيوش تقبل من جهات مختلفة لتتلاقى عند ملتقى معين .

ونترك هؤلاء إلى ظاهر « المدينة » فنرى طائفةً من المسلمين ، وقد بلغتهم أنباء تحرك الجيوش المشتركة إليهم ، وهم فى شغل شاغل من ذلك ، ونرى بأيديهم الفئوس والمكاتل وأدوات الحفر الأخرى ، ونسمع أن الأمر قد استقر بينهم على حفر خندق فى الجهة المكشوفة من المدينة ، وأن هذا الحفر من مشورة سلمان الفارسى الصحابى ، ويبدأون فى الحفر بجد واهتمام .

ونشهد المدينة وخلفها جبل (سلع) ، وقد أخذ بعض آخر يسد الثغرات الموجودة فى منافذ المدينة على جانبى الجبل ، حتى لا يبقى بعد حفر الخندق مكان صالح لتسلل المشركين منه إلى داخل المدينة ، ونلاحظ أن المسلمين يسرعون فى الحفر بلا إبطاء ، ولا مانع أن نسمع من بعضهم هذا البيت :

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

أو البيت التالى :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة

ونلاحظ أن المسلمين قد وضعوا الأطفـال والنساء فى المؤخرة ، فى الأماكن العالية كالربوات أو سفح الجبل خوفا عليهم وعليهن من السبى . . .

ثم ننتقل إلى الصحراء ، فنرى جيوش المشركين قد تضامّت وصارت ثلاثة فيالق ، ونرى ضخامة العدد (إذ كانوا عشرة آلاف) ، ونشهد كثرة السلاح والعتاد معهم ، ونرى أبا سفيان فى الطليعة لأنه الرئيس العام ، ونشهد خالداً على مقربة منه وهو يتزعم الخيالة ، والجميع يجدُّون فى المسير نحو المدينة ، ونسمع منهم ما يدل على أنهم سيباغتون المدينة قبل أن يعلم محمد وصحبه ؛ وبذلك يذيقونهم الوبال ، ويكون لهم معهم يوم تتحدث به العرب إلى الأبد . . . ويمكن أن يكون هذا الحديث بين أبى سفيان وخالد بن الوليد .

* * *

ونعود فنرى المسلمين لا يزالون يحفرون ويحملون الأتربة ، وقد اتسعت فجوة الخندق وامتدت وقاربت الانتهاء ، ولكننا نلمح فى الوقت نفسه أنهم فى تعب وجوع وقلق وخوف ، وأنهم يخشون أن لا ينتهوا من الحفر قبل وصول المشركين ، ولذلك يتواصَوْن بالصبر ومضاعفة الجهود ، ونلمح بينهم الوليد بن

الوليد بن المغيرة وهو مجتهد فى الحفر ، وحين استعراضنا لذلك المشهد قد نسمع من يردد قول عبد الله بن رواحة :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبّت الأقدامَ إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

ونلمح أنه لم يبق إلا هنيهات على تمام الحفر ، ثم نشهد على صفحة الأفق طلائعَ ضئيلة الحجم لجيوش المشركين ، والمسلمون يكبّرون ويحمدون الله تعالى ، لأنه أعانهم ووفقهم، فأتموا فى أيام ما كان يحتاج إلى أسابيع . . .

ثم يتركون الخندق ، ويبتعدون داخل المدينة ، بينما يدنو المشركون شيئا فشيئا ، وهم يحسبون أن الطريق مفتوح ، ولكنهم يدهشون كل الدهشة لوجود الخندق ، وهو حيلة لم تعرفها العرب فى حروبها من قبل .

على جانبي الخندق نشهد بعد ذلك صور المناوشات تدور بين المشركين — وعلى رأسهم خالد بن الوليد - وبين المسلمين ، وفيهم الوليد بن الوليد وأسيد بن حضير وغيرهما ؛ ويتراشق الفريقان بالنبال والحجارة ، ثم نفهم أن الحصار قد طال أياما ، وبينما نسمع فى صفوف المشركين دهشتهم من صبر المسلمين

واحتمالهم الحصار ، نسمع من جهة صفوف المسلمين معانى الجوع والخوف والتعب والتطلع إلى الله وحده لينصرهم ، وأنه لا ملجأ لهم ولا نصير سواه فى هذا الحصار الطويل المرير .

ونسمع من دعائهم : « اللهم منزِّلَ الكتاب ، وسريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم ، وانصرنا عليهم » . وقولهم : « اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » .

ونشهد خالدا وهو يحاول عبور الخندق بجواده ، ولكن الحصان يعصيه ، ويأتى عكرمة فيحاول ذلك أيضا فيعصيه جواده ، أو لعل عكرمة يهاب المحاولة ، ويأتى ابن عم خالد (واسمه نوفل بن عبدالله بن المغيرة المخزومى) ويحاول عبور الخندق ، ولعله عصب عينى جواده ، فيسقط به الجواد فى الخندق ، وتُدَقُّ عنقه ويموت ، ويطلب المشركون – وربما كان الطالب خالدا — من المسلمين ان يعطوهم جثته ، ويدفعوا لهم ما شاءوا من دية ، فيبيح المسلمون لهم أخذها دون شىء ، لأنه خبيث الدية ! .

ويقبل الليل ، وتوقَد المصابيح أو نحوها على الجانبين فى حذر وتكتم ، ونرى المسلمين فى جانبهم وقد بدا عليهم

الضعف والهزال والتأثر بالجوع والبرد وطول الحصار ، وهم يرددون الدعاء .

ونرى المشركين فى الجانب الآخر وهم يتفقون على القيام بهجوم عنيف فى الغد ، وبينما هم كذلك تهب ريح عاتية عاصفة صفراء ، تثير الغبار ، وتحرك الرمال ، وتقطع الحبال ، وتُطير الخيام ، وتمزق ما يثبت منها ، وتقلب الأوعية ، وتطفىء النيران فى جهة ، وتشعلها فى الجهة الأخرى ، وتنثر الأسلحة ، وتلقى بالرجال فوق الأمتعة ، وتزلزل المكان ، بل وتدفن بعض الرجال فى الرمال ، وتتناثر الحجارة والحصى ، فى دوى مرعب كأنه دوى الصواعق أو الرعود .

ونسمع أصوات استغاثة وحيرة واضطراب ، وحشرجات ، وأوامر بالانصراف ، ونسمع أصواتا أخرى تظهر الدهشة والعجب من هذه الظواهر .

ونشهد المسلمين على الجانب الآخر وهم يتجمعون قريباً من حافة الخندق ، يشاهدون هذا ويتساءلون عنه ، ويعجب بعضهم ، ولكن البعض الآخر يقول : هذا صنع الله ، هذه يد القوى القادر ، إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء .

ثم نناى عن حافة الخندق من جهة المشركين ، فنراهم وقد

أطلقوا سيقانهم للريح ، منهم الراكب ومنهم الراجل ، ثم نلمح أبا سفيان وهو يطلب من خالد وعمرو بن العاص أن يبقيا فى مئتى فرس لحماية ظهورهم ، ونلمح على خالد التفكير والشرود ، وبعد أن يكمل الانسحاب ينقلب خالد وعمرو مع الفرسان فى خيبة ظاهرة وضيق زائد . . .

وننتقل إلى جانب المسلمين ، فنراهم قد أدركوا انسحاب القوم ، فعلت تكبيراتهم وتحميداتهم ، يقولون: « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده » . ثم يموجون فى فرح وحبور ، وتتردد فى أفق المكان أصداء الآيات الكريمة :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا ، إذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » .

يوم بنى قريظة

يروى التاريخ الإسلامى أن زعيم هذه الأمة محمداً عليه الصلاة والسلام ، كان أمينا وفياً بعهده ، لا يخلف الوعد ، ولا يخون الميثاق ، وكان له بجوار ذلك غضبة محمدية تحرس الحق ، وتنتصف من المظلوم ، وتردع الطاغى الغشوم .

ومن أمثلة ذلك أنه عليه الصلاة والسلام عاهد بنى قريظة ، وهم قوم من اليهود كانوا يجاورون المدينة ، فأبطنوا النفاق والشقاق ، وأظهروا المودة والمهادنة ، ثم جاءوا فى ساعة من أحرج الساعات على المسلمين وهى « غزوة الأحزاب » فنقضوا العهد ، وأعلنوا الخديعة ، وانضموا إلى صفوف المحاربين من المشركين .

فلما أتم الله النصر على رسوله وعلى المؤمنين ، وهزم الأحزابَ بفضله المبين ، صدقت عزيمة الرسول على تأديب هؤلاء الخائنين ، وسارت كتيبة الإيمان المظفرة نحوهم ، وهى مصرة على النصر أو القبر ، وضربوا الحصار على معاقل بنى قريظة مدة طويلة من الزمن ، فلما اشتد الأمر بهؤلاء

اليهود اللؤماء أراد كبيرهم « كعب بن أسد » أن ينصحهم ويرشدهم إلى طريق الحكمة والسداد ، فجمع جموعهم وقال لهم :

– يا معشر اليهود ! لقد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنى سأعرض عليكم أموراً ثلاثة ، فاختاروا أيها شئتم .

قالوا : وماهى ؟ . قال : نتابع هذا الرجل ونصدّقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل ، وأنه هو الذى تجدونه فى كتابكم التوراة ، وبذلك تحفظون دماءكم وأموالكم وأبناءكم ونساءكم .

فقالوا : إننا لانفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره .
قال : فإذا أبيتم علىّ هذه فهلم ، فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مصلتين السيوف[١] ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا ولاحريماً ولا ثقلا ، وإن نظهر عليه فسنتخذ النساء ونلد الأبناء .

فقالوا مستنكرين : أنقتل هؤلاء المساكين الضعفاء ؟ فما خير العيش بعدهم ؟. قال : فإذا أبيتم علىّ هذه أيضا فهيا بنا ، فإن

(١) أى متخذين السيوف الصقيلة الماضية .

الليلة ليلة السبت ، وإن محمداً وأصحابه قد أمنونا فيها ، فانزلوا إليهم الليلة ، لعلنا نصيبهم على غرة .

فقالوا : أتريد أن نُفسد سبتنا علينا ، ونحدث فيه ما أحدثه بعض السابقين فمسخهم الله قردةً وخنازير ؟ . . .

فهز كعب رأسه أسفاً وقال :

— والله ما أرى فيكم رجلا حازما ، فأنتم وماشئتم ! . .

* * *

فلننظر إلى هؤلاء القوم ولنأخذ العبرة منهم ، فالمؤمن يتلقى الحكمة من أى وعاء خرجت . . . إنهم يعرفون أن دينهم قد نالته يد التحريف والتبديل ، وأن عهده قد مضى ، وأنه قد نُسخ بشريعة سيد الأنبياء ، ومع ذلك يتعصبون له ، ويفنون فيه ، ولايريدون أن يخرجوا عنه ، أو يخرقوا حرمة من حرماته ، وهم يرون الموت والدمار ، ويبصرون السيوف مرفوعة على رءوسهم ، فما شأننا نحن مع دين الله دين الحق ، ونحن نعتقد صدقه وصلاحيته وخلوده ، وارتباط السعادة الدنيوية والأخروية بتنفيذه ؟ . مامبلغ اعتزازنا الشريف بهذا الدين الحنيف مع أن الله قد جعله لنا عقيدة وهداية ؟ .

جواب هذا السؤال معروف للقلوب والعقول والأبصار ،

فليس بحاجة إلى تكرار، ولكنا بحاجة إلى أن ندرك الرتبة السامية التى وصل إليها المسلمون الأولون فى احترامهم لدينهم، وتمسكهم بتعاليمهم، وإجلالهم لشريعتهم، وانطباعهم على الإخلاص والوفاء لتعاليم السماء التى جاءت بأسباب العدالة والرحمة والرخاء.

لقد نال «بنى قريظة» من الرعب ما نالهم، فأرادوا أن يستأنسوا برأى أحد المسلمين من حلفائهم السابقين، فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليهم «أبا لبابة الأوسى» ليشير عليهم، فلم يمانع فى ذلك رسول الله، وما كاد أبو لبابة يتخطى أسوارهم حتى اجتمع حوله الرجال والنساء والأطفال وهم يبكون أحرّ البكاء، وسأله أحدهم: هل ترى أن ننزل على حكم محمد؟. فقال: نعم. ثم خانته أناتُه فأشار بيده إلى حلقه، وقال: إنه الذبح!.. أى إن مصيرهم سيكون الذبح، ولعله علم أن النبي صلى الله عليه وسلم أعدّ لهم هذه العقوبة جزاء غدرهم وخيانتهم.

ثم انتبه أبو لبابة لنفسه فعرف أنه قد أفشى سراً من أسرار الحرب، يقول: «فوالله مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنتُ الله ورسوله، فندمت واسترجعت فنزلتُ وإن لحيتى

لمبتلة من الدموع ، والناس ينتظرون رجوعي إليهم ، حتى أخذت من وراء الحصن طريقاً أخرى حتى جئت المسجد » .

نعم : انطلق على وجهه واليهود يعجبون من فزعه وانطلاقه السريع ، حتى وصل المدينةَ دون أن يخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، واقتحم المسجد فربط نفسه فى عمود من عمده وهو يقول :

« والله لا أبرح من مكانى هذا حتى أموت أو يتوب الله علىَّ مما صنعت ، وأعاهد الله ألا أطأ بنى قريظة أبداً ، ولا أُرى فى بلدٍ خنتُ الله ورسوله فيه أبداً » .

واستبطأ النبي أبا لبابة ، فبعث من يأتيه بنبئه خشية أن يكون اليهود قد أسروه ، فإذا الأخبار تأتى بقصته التى أسلفنا ، فقال النبي : « أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له ، فأما إذ قد فعل مافعل فما أنا بالذى يطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » . وأنزل الله فى أبى لبابة قوله : « يأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . وظل أبو لبابة مرتبطاً بالعمود ستة أيام وقيل أكثر ، تأتيه امرأته فى كل وقت صلاة ، فتحله للصلاة فيصلى ، ثم يعود فيرتبط بالجذع ، حتى ذهب سمعه فما يكاد يسمع ، وكاد يذهب بصره من الجوع والأسف .

قال أبو لبابة : « فكنت فى أمر عظيم وفى حر شديد عدة

ليال لا آكل فيهن شيئا ولا أشرب ، وقلت : لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله علىَّ ، وأذكر رؤيا رأيتها فى النوم ونحن محاصرون بنى قريظة كأنى فى حمأة آسنة (أى طين منتن) فلم أخرج منها حتى كدت أموت من ريحها ، ثم رأيت نهراً جارياً فأرانى اغتسلت فيه حتى استنقيت ، وأرانى أجد ريحاً طيبة . . . فاستعبرتها أبا بكر (أى طلبت منه تأويلها) فقال: لتدخلن فى أمر تغتم له ثم يفرج عنك ، فكنت أذكر قوله وأنا مرتبط فأرجو أن ينزل الله توبتى ، فلم أزل كذلك حتى ماأسمع الصوت من الجهد ورسول الله ينظر إلىَّ » ! . . .

وفى ختام هذه المدة كان رسول الله فى بيت أم سلمة بالسحر ، فنزل عليه قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم » . فتبسم رسول الله وضحك ، فقالت له أم سلمة : مم تضحك يارسول الله ، أضحك الله سنَّك ؟ .

فقال : لقد تاب الله على أبى لبابة . فقالت : أفلا أبشره يارسول الله ؟ . فقال النبى : بلى ، إن شئتِ ؛ فقامت ولم يكن الحجاب قد ضُرب بعد فنادت أبا لبابة قائلة :

يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك . فسمع المسلمون

بالمسجد هذا النبأ فتسارعوا مستبشرين إلى فك قيده ، فقال لهم : لا والله حتى يكون رسول الله هو الذى يطلقنى بيده .

فلما كانت صلاة الصبح خرج النبى من بيته وأطلق سراحه .

فهل فينا من يتنسم رائحةَ هذا الوفاء النادر ، أو يتمثل بتلك المراقبة الدقيقة لذات الله حتى يحيي مواتَ قلبه ، ويقضى على فتور همته ؟ .

هل فينا من يستجيب لتلك الدواعى الكريمة التى تهيب بنا أن نخاف الله ونراقبه، ونعبده كأننا نراه ، فإن لم نكن نراه فإنه يرانا ، لأنه محيط بما فى السموات والأرض ، وهو العليم الخبير ؟ .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

الفهـــرس

مطابع دار القلم بالقاهرة